ثلاثيّة سيرة الجمر -١-

امس المواجع

رواية

ابتهال الغزّيّ

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:
اللجنة العليا لموسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق
مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
( )

البريد الالكتروني :
www.baina.com

العراق:كربلاء المقدسة
الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ- ٢٠٢٤ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:
م. زهير محمد حسين الجبوري

ثلاثيّة سيرة الجمر

– ١ –

أمس المواجع

رواية

ابتهال الغزّي

الفصل الأول

(١)

(تيمور يولي) تلك الطريق التي يتشاءم منها أهل تلعفر؛ هذه المدينة العريقة التي تضرب جذور نخيلها في أعماق التاريخ... ربما يرجع بعض جذورها إلى ستة آلاف سنة... هي بدأت قبل التاريخ حتمًا من دون خلاف إلا في استقرارها فهناك خلاف... كلّما تحاول الإغفاءة على صوت زقزقة عصافيرها، ينزّ نُعاق من غربان غريبة على سعف نخيلها... إذ نخيلها أكثر من أشجارها...

(تيمور يولي) تلك الطريق التي تذكّر الفلاحين حين يدوسون ترابها الآبق بأوجاعهم المتوارثة... الحاج علي الصفّار الذي يعشق الترانيم التركمانية، وهو يخطو نحو بستانه الفاخر، يتوقف عن الترانيم حين تقترب أقدامه من عتبات تلك الطريق... كأنّ الطريق مسكونة بما لا يُرجى منه الخير...

(سارة) مدلّلة الحي كانت تحبّ مرافقة الحاج علي الصفار؛ لا لأنّه قريبها، بل لأنّها طفلة حرّة تنثر محبتها كنثار عطور القدّاح في مساءات

تلعفر... هي طفلة مدلّلة لا في بيتها فحسب بل في الحي برمته؛ لجمالها البرئ المفعم بالنداوة... زرقاء العينين... شقراء الشعر... بيضاء البشرة وفي خدودها ينبض التفاح الأحمر... حين ينظر المرء إلى وجهها البشوش يُجبَر على الابتسام؛ وكأنّ نضارتها تدغدغ الناظرين إليها...

وفي صبيحة يوم تلعفري نديّ متربعٍ على فصل الربيع تقفز سارة في طريق الحاج علي الصفار وهو متجه إلى بستانه كعادته... تلاطفه ببراءتها كي ترافقه إلى بستانه وتراقص حشائشه.. تلاعب الخراف القابعة بأمان بين نُخيلاته .. يضعف الحاج أمام براءة الطفلة المدَلّلة، لكنه يباغتها بعكس اتجاه المسير إلى بستانه نحو بيتها؛ كي يستأذن أهلها برفقتها له.

يصل الرفيقان المختلفان سنًّا، المتفقان لهوًا؛ إذ يتحوّل كلّ من يرافق سارة المدلّلة إلى طفل مُسنٍّ؛ يبادلها الدلع، والغنج، وكأنّ الزمن رجع به إلى مراتع الصبا... تستمتع سارة بترانيم الحاج التركمانية... تراقِصُهُ وهو ينشد لها العبارات الراقصة بلحن طَرَيٍّ... تخفت نبرته وهو على وشك الخطو على طريق (تيمور يولي)... تخفُّ رقصات سارة المتباعدة كلما اقتربا من ذلك الطريق... تهدأ الرقصات... السرور... الترانيم... الاً الأنفاس فهي متصاعدة كتصاعد الشؤوم

من الماشين... يلتحق الحاج والطفلة سارة مع ركب الواجمين من سكنة تلعفر الماشين على تراب (تيمور يولي) في تلك الصبيحة التي تركت نضارة الربيع على أول قارعةٍ من تلك الطريق...

سارة اليافعة هدأت كسائر الهادئين على ذلك التراب الآبق... هي لا تعرف السرّ لكنها استجابت لرغبات تلك الطريق الضاغطة على الربيع... واللهو البريء... والنضارة... الجميع مستسلمون لتلك الطريق بلا تمرّد...

(٢)

المستنقعات المتبقّية من النهر القديم تُشْعِرُ الساكنين حولها وكأنّها موجات نهر متدفّق يدغدغ أجواءها كي تضجّ بالسرور والبهجة... الجميع يؤمن بوجود نهر على الرغم من جفافه، لكنه ببقاياه التي استحالت واديًا ذا شُعَب ومستنقعات صار كحدٍّ فاصل في المدينة التي توزّعت بفعل حضوره إلى جهتين وكأن النهر الذي جفّ كان يعلم أنّ للمدينة اتجاهين؛ على الرغم من مسيرة أمواج النهر الضافية في مسار واحد...

(ايلخانلي، الله ويرد يلي، علي ديوه لي، بابالار، بكلر، جلبي، بيرقولولر، عاصيلر، فرحاتلر، قزانلر، جولاقلي، سيدلر، نجارلار، مرادليلر، سرايليلر، دميرجيلر، قره قوينلو، ديوه جي، بقاللي، أق قوينلو، محمد أغالي، قصابلر، خانليلر، حمولي، عجملي، حربو، قوروتلي، موللالي، نفطجي، فرهادليلر، علي خان بك، داودلي، همتليلر، بيرقدارلي، قابلان، ماوليلر)،هذه الأسماء ليست أسماء فضائية

أو قائمة بأسماء أجنبية، بل هي أسماء القبائل التي قطنت على ضفتي المدينة... كان لا يفصل بينها الاّ النهر الذي جفّ ماؤه؛ كيف؟... ولماذا؟... ومتى؟... لا أحد يعلم، حتى أنّ أهله نسوا اسمه، ولا يتذكّره إلا الكهول منهم، الذين كانوا ينقلون عن أجدادهم أنّهم يسمّونه أو كان اسمه نهر«قرمز دره»...

ربما ثار النهر على موجه؛ لأنّ من عادات الأنهر أن تغسل ما لا يطيب؛ لكن بعض ما لا يطيب في تلعفر صار عصيًّا على دفقات النهر المطهِّرة... فلفّت ضفّتاه عنقَ موجه وأخرست أنفاسه؛ حتى استحال وديانًا بعد أن كان نهرًا جاريًا... فالأنهار تستشرف الآتي؛ لنقائها، فَعَلِمَتْ أنّ من بين الساكنين على ضفافه من سيبيع موجه الصافي لخفافيش كالحة مالحة غريبة لا تستحق رقراقه العذب، ففضّل الجفاف على أن يُستباح مرّتين، مرة على يد طريق (تيمور يولي) والأخرى في المستقبل القريب ذي السواد القاتم...

هذه القبائل من العراقيين في تلعفر توزعت مرجعيتها بين المسلمين من مدرسة أهل البيت عليهم السلام وسواهم، ولكن الجو - كما يبدو - كان مفعمًا بالألفة والحميمية؛ لربما كان الأمر يرجع إلى أن ما نسبته ٦٠ ٪ من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام هم القاطنون على ضفة

من ضفتي نهر تلعفر الجافّ... نهر(قرمز درّه)، فكان يطفو على سطح العلاقات ما يرشح عن نفوسهم من محبّة وتعايش وسلام... وتبدّل الأمر بعد أن استحال الأمر إلى سواهم من أتباع سلف التكفيريين... فطفا ما كان يُضمَر عند بعض الآخرين من ثارات يرجع نَفَسُهَا إلى القائلين بعبارات:«لا خبر جاء ولا وحي نزل»...

الفصل الثاني

(١)

ما بين زقزقة العصافير وأصوات، الأغنام، وصياح الفلاحين المتمازحين فيما بينهم... ترتسم لوحة طبيعية من الانسجام الكوني المريح... الجميع يشعر أنَّهُ حيٌّ؛ لا لأنّ الكائنات هنا ميتة، بل لأنّ الشعور بالحياة كان نابضًا في أرواح الجميع:... بشر،... حيوانات،... نباتات... الجميع يتقاسم الأوكسجين بحميمية، لا تدافع على النَّفَس... لا تصارع على الوجود... فالبقاء – حينها – كان للأطيب...

تقترب الطفلة المدلّلة «سارة» من الحاج علي الصفار... تلاطفه ببراءة... يتفاعل الحاج معها... تاركًا معوله، ممسكًا بمنديله الأبيض الذي تراه ناصعًا على الرغم من كومة الأتربة التي تغطيه... تبادره سارة بالسؤال...

- حاج .
- نعم يا ابنتي .
- لِمَ الجميع يصمت حينما ندخل طريقَ (تيمور يولي

)؟.

تأخذ الحاج لحظات تأمل... وكأنّه تفاجأ بسؤال خارج سياق الهدوء الذي كان يغطي أجواء البساتين التي حوله... تشعر سارة بتغيّر ملامح الحاج؛ إذ كانت أساريره منفرجة، تنبض بالأريحية... فاستحالت، منذ أن طرق أسماعه سؤالها المفجع، إلى كَدَرٍ وغَمّ...

- اسمعي يا ابنتي، سبب هذا الوجوم الذي يغطّي أبناء تلعفر حينما تطأ أقدامهم تراب (تيمور يولي)؛ هو اسمه الذي يذكّرهم بأحداث لا أريد لروحك البريئة أن تنجرح بسماعها...

- لقد شوّقتني إلى معرفة السبب أكثر يا حاج، بالله عليك قصّ علي ما حدث ...

ببراءة طفولة، ألحّت سارة على الحاج كي يحدّثها، لكّنه أشفق على طفولتها أن تنكسر بسماع أحاديث مذابح دامية، وهي المقبلة على الحياة بشغف حميم...

- اسمعي يا ابنتي، باختصار: حدثت على هذه الطريق معارك عنيفة بين المسلمين من أجدادنا وغيرهم في حقب زمنية سحيقة... واحترامًا لدماء الشهداء من أجدادنا، نصمت حين نمرّ على آثارهم هناك...

اقتنعت الطفلة بحديث الحاج على غير عادة الأطفال الذين يلحّون على ما يريدون، ولكن ربّما لم يكن حديث الحرب ممّا يرغب فيه الأطفال... أو ربما أطفال تلعفر حصرًا الذين كانوا يتعرّفون يوميًا إلى زقزقة عصفور جديد، أو تغريدة بلبل غريب؛ لأنّها كانت مرتعًا للطيور المهاجرة، ولم يعلم أهلها أنّهم سيصابون بداء الهجرة، أو التهجير قريبًا...

(٢)

مرّت السنوات على هذه المدينة المتخمة بالريفية؛ على الرغم من أن أهلها يصرّون على مدينتهم، إذ إنّ كل علامات الريف من خضرة الأرض والقلب؛ كل ما فيها ومَنْ فيها تميل إلى البدائية لا بمعناها الهمجي بل بمعناها الصافي الأصيل، فهم دومًا يصرّون على أنّهم في هذه الأرض قبل أن يسكن الذين حولهم ترابَها، فهم من مدن التاريخ العريقة؛ إذ يرجع جذرها إلى ما قبل ٦٠٠٠ سنة، ويحتجّون على أصالتهم تلك بذكر علامتهم التاريخية الفارقة «نَمْت عشتار» هذا الاسم الذي التصق بأقدم قلعة في المنطقة تعود إلى الدولة «الميتانية» قبل العهد الآشوري... هكذا بَدَوا يدافعون عن وجودهم الذي بات مزعزعًا، أو على وشك، منذ أن استفحلت زمر التكفيريين على الوجود، أو على الأقل استفحل وجودهم فوق أرض الوطن.

خلال هذه السنوات حافظت المدلّلة على نضارتها، وفقدت شقاوتها؛ فـ(سارة) الآن من بنات تلعفر المحتشمات اللواتي نادرًا ما يبرزن

للشارع... وصارت مطمعًا لمخادع الشباب، فأغلبهم يريدها خطيبةً له...

سارة المدلّلة في الأمس القريب... الواضح على ملامحها الترف والنضارة... باتت في ميل إلى الشحوب... فما ساد في بلدها منذ ١٩٩١م من حصار اقتصادي بعد حرب مُرّة مع الجارة إيران دامت أغلب سنوات الثمانينات، فأكلت الأخضر واليابس، فبدا كلّ شيء إلى الشحوب أميل، ومن بينها عنفوان «سارة»، ولكنها على الرغم من ذلك حافظت على بقايا جمال أصيل؛ لأنّه مرتبط بروحها المتوارثة عن أصالة هذه المدينة العريقة بطيبتها كترابها...

في لحظة من لحظات الحوار العفوي مع مُسِنّات المدينة، وبالتحديد مع الحاجة «أم محمد» التي خطبتها قبل أيام لابنها الشاب الجميل أيضًا؛ روحًا وشكلًا، ففي لحظة من لحظات الحوار النسويّ الممتدّ والمتشعّب كأي حوار نسويّ على أرض المعمورة؛ تكشّفت لـ «سارة» التفاصيل التي أخفاها عنها صديق طفولتها المُسِنّ «الحاج علي الصفّار»... فالدماء التي سالت على طريق (تيمور يولي) كانت دماءً متجدّدة على مدى تاريخ هذه المدينة التي أدمنت المأساة والحروب الطاحنة... إذ قصّت عليها عمّتها – حديثًا – «أم محمد»: ما سمعته من أجدادها:... أنّ هذه الطريق كانت طريقَ مجموعةٍ من القتلة الذين استباحوا مدينتهم منذ قرون.. عاثت

فيها مجموعة همجية وهي في طريقها من بغداد إلى الموصل؛ وكأنّ مصير مدينتهم أن تكون ذهابًا وإيابًا لنحر مدن الوطن على أيدي السفّاحين من شذّاذ الآفاق...

ولم تُرْضِ الحاجة أم محمد فضولَ كنّتها الجديدة والوحيدة؛ إذ ليس لأم محمد سوى ولدها البكر «محمد»، فأتعبت سارة صفحات الكتب بحثًا عن أصول هذه الحادثة، فالقناعة المتحصّلة عند أجيالنا: أنَّ الكهولَ لا يكذبون، وأنّ معلوماتهم صائبة، وإن كانت غير واضحة.

سارة التي كانت على وشك التخرّج في كلية التربية في جامعة الموصل بتخصّص التاريخ، كانت تهوى البحث عن الحقائق، فشغف الكشف عن حقيقة أصالة مدينتها كان الدافع الأول لالتحاقها بقسم التاريخ؛ على الرغم من تفوّقها في إمتحان البكالوريا للسادس الإعدادي... كانت سارة كأي فرد من أفراد هذه المدينة متشبّثة بترابها، على الرغم من انكشاف بعض المزيَّفين من جيرانهم القابعين على الضفّة الأخرى من النهر الذي بات واديًا متشعّب الكهوف...، مخلِّفًا مجموعة من المستنقعات تدلّ على وجوده السابق...

كانت سارة متعلّقة بأول وصف قرأته عن مدينتها في أشهر كتاب عن تاريخ البلدان والمدن، حتى استعانت بجارها المتخرّج حديثًا في

كلية الهندسة من جامعة الموصل « سليم»، هذا الشاب الذي كان كالأخ لمحمد المُبادِر لخطبتها مؤخّرًا، فخطّه كان مهندَسًا كاختصاصه، استعانت به ليخُطَّ وصف ياقوت الحمويّ في كتابه «معجم البلدان» بخطّ جميل مع إطار مزخرف مستوحى من نباتات مدينتها القرويّة بطيبتها... إذ كانت تتأمل بعبارات هذا المؤرّخ الذي يقول في وصفه لتلعفر:

(تل أعفر ـ ويقال تل يعفر ـ وقيل إنما أصله ـ تل الأعفر ـ للونه فغُيِّر بكثرة الاستعمال وطلب الخفة وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل وفي وسطه وادي فيه نهر جاري على تل منفرد،حصينة محكمة وفي مائها عذوبة وبها نخيل كثيرة يجلب رطبه إلى الموصل) .

تتسائل سارة دومًا حينما تقرأ عن توصيف مدينتها في كتب التاريخ عن سرّ اختفاء النهر... هل كان جفافه بفعل فاعل أم هو لأمر ربانيّ مجهول؟... وما كان يشغل بالها أيضًا أنّ الحروب التي طالت مدينتها كثيرة، ولكن أبشعها تلك التي أخفاها عنها الحاج علي الصفّار... وكانت دائمًا تشكر في سرّها إخفاء الحاج قصّة مجزرة (تيمور يولي)؛ فلو قصّ عليها بشاعة ما حدث على تلك الطريق في صغرها؛ لتأثرت نفسيتها مبكرًا ونمت على خطّ الخوف المتنامي...

الوقت الذي مضى كان كافيًا لأن تنضج وتتهيأ لاستقبال موجات

الخوف المختبئ في بطون الكتب، أو في تلافيف المستقبل... واليوم تكشّفت لها أولى دُفعات الخوف المتصاعد نحو الرعب... وربما الذعر... أو الهلع...

(سيمداغو) هذا الطاغية الذي شقّ طريق (تيمور يولي) كان أشدّ وقاحةً من أيام الحصار التي عانتها سارة، وسلبت منها نضارها... إذ كان مبعوث الطاغية (هولاكو) الذي أطاح بمدينة بغداد سنة ٦٥٦ هجرية للإطاحة بمدينة الموصل، وكانت ما بين الإطاحتين؛ فاجعةُ تلعفر التي ذُبح فيها الرجال، وسُبيت فيها النساء، وتيتّمت فيها الأطفال... فاجعة ما زال صداها يرنّ في أذهان الأجيال حتى أنّ الحاج علي الصفّار صاحب الروح المرحة تضطرب ملامحه حين تدوس أقدامه تراب هذه الطريق؛ وكأن (سيمداغو) يتعقبه رغبةً بالانقضاض عليه في أية لحظة... لحظات من الرعب الممتدة عبر التاريخ تنبعث من ذرات تراب هذه الطريق...

كانت سارة تتأمل تجدّد ولادة (سيمداغو) في مراحل تاريخ هذه المدينة ولكن بأسماء جديدة... وتتساءل هل هناك (سيمداغو) جديد سيقفز إلى مستقبلنا من الماضي عبر طريق (تيمور يولي).

الفصل الثالث

(١)

في جلسة شبابية غير هادئة... لأنّ الشباب يمرحون بصخب دومًا... يتندّر طارق؛ ذلك الشاب المشاكس - كعادته - على صديقيه محمد وسليم...

- محمد، ما بالك تنبش في الماضي كلّما جلسنا؟ هل هي آثار خطيبتك؟ فأنت لم تتزوّج بعد ووقَعْتَ تحت طائل سيطرتها ...

تتعالى ضحكات مرحة بين الأصدقاء الجالسين على حين صفاءٍ من الزمن... يتحمّس سليم الذي صار مهندسًا رسميًا بعد تخرُّجِهِ، ولكنه لم يُمارس اختصاصه بسبب البطالة المتفشّية في البلد... يبادره بالرد:

- طارق! كُفَّ عن تندّرِك، فمحمد على صواب... فمن لا جذر له، لا مستقبل له...

يضحك طارق بمفرده دون تفاعل صديقيه معه...

- يا باش مهندس ! كأنّك تأثرت بصديقك المتأثر بخطيبته ...

ينبري محمد حينها للرد على طارق:

- يا طارق،الموضوع ليس موضع تأثّر بخطيبة، ولكنها الحقيقة التي ينبغي أن نستكشفها، والكشف لا يكون هكذا عفويًا، بل لا بدّ من البحث عن جذوره...

- والجذور برأيك في التاريخ يا محمد؟...

- مؤكد يا طارق، فالتاريخ هو الصندوق الأسود الذي يخبِّئ كلّ ما فات وما مات...

- أحسنت، فما دام الذي فات قد مات، لِمَ نحييه مجدَّدًا؟ .

- هو ليس إحياء لموتى، بل هو قراءة المستقبل من مقدمات الماضي، ألم تسمع يا طارق: أنّ التاريخ يعيد نفسه ...

يتداخل سليم في الحوار المتصاعد بين صديقيه... ليعمّق الفكرة:

- يا طارق، هل قرأت عن دولتَيْ (قره قوينلو) و (آق قوينلو) وهما دولتان من دول تاريخ مدينتنا؟ .

- يا سليم، بالله عليك أنت تعلم أنّي لست تركمانيًا...

وأنّي لست متضلّعًا من التاريخ، ولكن صدقًا أجبني: أنت مهندس فما دخلك في التاريخ والسياسة؟... مؤكد أنها من تأثيرات محمد وخطيبته؟...

- يا طارق، الأمر لا علاقة له بهما، وإن كنت أعترف أن اهتمامي بالتاريخ كان بسبب اختنا سارة التي تستعين بي لخطّ بعض الأقوال التاريخية الخاصّة بمدينتنا... ولكن الأمر لا يعدو أن يكون تحفيزًا للعقل كي يستشرف المستقبل، فالمستقبل مرهون بمقدمات الحاضر يا عزيزي...

- وكيف ذلك؟...

- اسمع يا طارق سألتك قبل قليل عن دولتَيْ (قره قوينلو) و (آق قوينلو) وهما دولتان من دول تاريخ مدينتنا، لا لمجرد أنّهما دولتان من تاريخ مدينتنا بل لأمر يكشف لنا طبيعة سكّان مدينتنا القابعين على ضفتي نهرنا الجاف، و...

قبل أن يتمّم سليم حديثه... تنادي الحاجة أم محمد على ولدها كي يأخذ الغداء... فهم معتادون على طعام أم محمد اللذيذ... ينشغل الشباب بالغداء عن الحديث... فشغف الشباب بالطعام يُلهي عمّا سواه...

(٢)

تتعالى أصوات خوط استكانات الشاي الذي سُكِبَ ساخنًا شهيًا توًّا من إبريق أم محمد الطيب؛ لطيبتها المفرطة، فكلّ من يأكل من يدها يختم طعامه وشايه بقوله: نَفَس أم محمد الطيب منعكس على طيبة الطعام والشاي، وهكذا ختم الشباب قولهم، وهو ما يرددانه بعد كل وجبة طعام، أو شاي... وكان محمد يرد عليهم دومًا، كما ردهم اليوم:

- شبعنا من مديحكم، وَمَلَلْنا قدومكم، أتعبتموني وأتعبتم الحاجة...

وكانت الحاجة ترده دومًا، كما ردته اليوم، فهي تجالسهم؛ لأنها تراهم كمحمد، وبخاصّة حين سكب الشاي، وعجائزنا يستطعمن الشاي حينما يُسكب من الإبريق مباشرة؛ ولطيبتهن يرغبن دومًا في نقل ما يَسْتَطْعِمْنه إلى ضيوفهنّ:

- يا محمد، مالَكَ والشباب، أنا لا أمَلُّ من حضورهم،

وتعبهم راحة...

يضحك سليم وطارق - كعادتها - على رد الحاجة أم محمد، ويشعران بنشوة النصر على صديقهما المتنمّر عليهما دومًا...

ينتهي الشباب من شرب الشاي... ويعاود سليم حديثه عن الدولتين، يتذمّر طارق من الحديث:

- يا سليم، لا تنزع طعم الطعام والشاي الطيبين من لساني بكلامك التاريخي المفجع...

- يا طارق، أنت سألت وأنا أردت الإجابة عن سؤالك، فإن أحببت تغيير الكلام فلا مانع عندي؟...

- يبادر محمد بالكلام مع سليم... لا يا سليم، أتمم الكلام فأنا في شغف لسماع حديثك عن الدولتين، دعكَ من طارق، فهو مشاكس كما تعلم...

يضحك الجميع، ومن ضمنهم طارق الذي شعر بضرورة الإصغاء لا من باب عنايته بالحديث التاريخي، ولكن من باب الأتكيت وأصول التعامل الذي غالبًا ما يخالفه، ولكنه هذه المرة شعر بحرج لمغادرته - على غير عادة -...

يتوجّه طارق بالحديث إلى صديقيه عن دولتَيْ (قره قوينلو) و

(آق قوينلو):

- اسمعا يا صديقي إنّ سكّان مدينتنا يتأثرون دومًا بما حولهم من تقلّبات سياسية؛ لأنّ مصيرنا مقترن بالمدن الكبرى كالموصل مثلًا، وأي تغيير يحدث فيها ينعكس علينا...

يشعر طارق أنّ هذا الحديث مهمّ، يستوي جالسًا جِلْسة اهتمام، ويبادر سليم بالقول:

- فعلًا يا سليم، فكلامك منطقي، وربما سأغيّر رأيي بالتاريخ...

يضحك محمد من تظاهر طارق بالاهتمام:

- يا طارق، كفّ عن شعوذتك واتركنا نستفيد من كلام سليم...

- لا يا محمد، أنا صدقًا اقتنعت بمقدّمة حديث سليم، وأرغب في الاستزادة... فأكمل لطفًا...

يكمل سليم حديثه عن ذلك:

- ومن أشهر مظاهر» سلوك التأثر المباشر» من مدينتنا بما يحدث من المدن الكبرى المجاورة كالموصل مثلًا، هو استجابتهم للانتقال من دولة (قره قوينلو) التي تُعرف بالتاريخ الإسلامي باسم

(دولة الخروف الأسود)، وبعد سقوطها ونهوض دولة (آق قوينلو) على أنقاضها بعد قرابة ٦٠ سنة انخرطت مدينتنا على حكمها ولبست لباسها السياسي...

- وماذا تسمّى دولة (آق قوينلو) في التاريخ الإسلامي؛ إذ تعلم أنّني لست تركمانيًا يا سليم؟...

- نعم يا طارق، تسمى (آق قوينلو) التي تُعرف بالتاريخ الإسلامي باسم (دولة الخروف الأبيض)... والتناقض الذي في اسم الدولتين (أبيض و أسود) ينمّان على مدى التناقض في سياسة الدولتين على أرض الواقع...

ويزداد اهتمام طارق بالانعكاس السياسي على الواقع بفعل التاريخ، فيسأل سليم:

- وماذا نستفيد من هذه الحادثة التاريخية ذات الطبيعة التضادية؟...

- يا طارق، نستفيد: أنّ شعب مدينتنا شعب طيب جدًّا لحدّ البراءة، بحيث يغير عقيدته السياسية متأثرًا بما حوله، وهو ما جعل مدينتنا محطّ التغيّرات بفعل ثقتهم المباشرة بالغرباء من دون تمحيص... والمستقبل سينبئنا بكوارث تشبه كوارث الماضي إذا لم يغيّر

شعبنا طبيعته الاجتماعية...

- وهل تعتقد يا سليم، أنّ الأمر هيّنًا؟...

- أبدًا يا محمد، الأمر ليس هيّنًا، بل صعب جدًّا، فتغيير السلوك يحتاج إلى وقت طويل، فكيف بسلوك مجتمع كبير مثل المجتمع التلعفري؟...

- الله يستر اذن...

ينفرط عقد الجمع... يغادر الأصدقاء ويبقى محمد في البيت... تبادره والدته بالحديث وهي تنظّف الغرف من عبث الشباب...:

- يا ولدي، قلبي لا يرتاح كثيرًا لطارق، فكن منه على حذر...

- يا حاجة، لا تقلقي فولدك يقظ...

لم يغسل رد محمد القلقَ عن قلب أمه... لكنها بقيت تنظّف الغرفة على وجلٍ ممّا سيأتي... فقلب الأم - كقلب المؤمن - دليله...

الفصل الرابع

(١)

ربّما .. ومن الغريب.. أن يبدوَ كلُّ شيء في هذي البقعة من الأرض منقلبًا على عقبيه، مغلوبًا على أمره... فأغلب الناس يفترشون الشّوارع؛ كي يتسامروا على أرصفتها، أو يهمهموا فيما بينهم، أو يتهامسوا، أو يلمزوا، أو... أو... تخيّل ما شئت؛ فهو واقع لا محالة عند هؤلاء الّذين غلَبهم التّيار الكهربائيّ بغيابه الطويل؛ لذا بقيت غرف الضيوف فارغة كفراغ فؤاد أم موسى، وتملؤها العتمة؛ فمذْ أن زار أزقّتهم الغرباءُ المرقّطةُ بزّاتُهم من أثر العسكر...

يتسابق الشباب قبل الكهول إلى حجز مقاعدهم – الأرضية – في أرصفة تلعفر الترابية؛ ليلعبوا النّرد، أو الدومينو؛ ويدخّنون أردأ أنواع السجائر، ويضحكون بحشرجة ممزوجة بحزن خفي؛ هذه الأرصفة ضاقت ذرعًا من حرارة الشّمس؛ فتفقّع عنها القِير، وظهر التراب بغباره رافعًا أيديَه إلى السّماء مع صيحات الـ(الدّو شيش) المربوط من الجهتين، أو قَفْلات الـ(المَلْص)؛ فمع كلّ هذا الوضع؛ كان أن سرّح

مدير بلديّة البلدة عمّال النظافة ومهندسي الطرق؛ بسبب الأزمة المالية التي غزت العالم العام قبل الماضي الموافق ٢٠٠٥... ربما يكون العذر واهنًا؛ ذاك أنّ أهل الحي قد وقر في أذهانهم أنّهم معزولون دومًا عن سكان الكرة الأرضية كباقي مدن العراق؛ فما لهم والأزمة تلك التي تؤثّر في حياتهم... فهم لا يقتاتون إلا على ضروع أبقارهم، ولحوم أغنامهم، وبيض دجاجهم؛ التي عاشت سنين شِداد، وعلى ثمار أشجارهم التي ذبُلت لشحّة الماء في بلاد ما بين النّهرين (الرافدين) التي سمّاها النّاظرون إليها من الشّعوب المجاورة لها قبل التأريخ بأرض السّواد؛ لشدّة غنى أرضهم بالثّمار والخَضَار الداكن...

(سليم) الشاب المتعلّم المتخرّج قبل ثلاث سنوات؛ أيْ: في عام ٢٠٠٢ في جامعة الموصل نَسِيَ تخصّصه الذي يتغامز به أصدقاؤه دومًا باللّهجة المصريّة:(يا باش مهندس) أعطنا كيلوين بطاطا...

ربّما استوطن (سليم) رصيف الشّارع الرئيس للحي أكثر ممّا استوطن بيته... فهو يفرش بضاعته من الخضار والفاكهة قبل أن يصيحَ الديك سَحَرًا، ويستمرّ على ذلك حتى وقت متأخر من اللّيل؛ إذ يمرّ صحبه الهاربون من ضنك البيوت المعتمة إلى حيث فضاء الله الواسع المليء بالهواء الصّافي من دخان الحطب الملطِّخ لجدران

الأسطح حينما توقده النساء لطبخ ما يجود عليهنّ الرجال المجهدون بِلَوْكِ الصمت الممزوج بتيبّس آمالهم وبتخمة آلامهم...

على الرغم من هذا الحال، لم يفارق سليم شغفه بقراءة التاريخ، بل زاده الوضع تعلّقًا؛ لأنّه يؤمن بأن التاريخ يعيد نفسه...

محمد وطارق رفيقا دربِ سليم الأثيران؛ ولا سيّما في مسامرته اللّيلية التي اعتاد عليها أهل الحي؛ غابا منذ يومين من دون سابق إنذار... وكثُرت الحكايا التي تسرد سبب غيابهما بلقلقة... وأقاويلَ... وأهاويلَ...

القصّاب عامر همس في أذن بعض زبائنه الالمقربين أنّهما التحقا في تشكيلات مسلّحة مجهولة تعمل على نيّاتٍ ليست حميدة... فالعراق ولا سيما تلعفر بعد عام ٢٠٠٣ م كثرت فيه التجمّعات الحميدة وغير الحميدة؛ بسبب الانفلات الأمنيّ المتعمّد من قوات الاحتلال...

الخبّاز إبراهيم الذي نزح إلى تلعفر من أقصى شماليّ العراق، وتحديدًا من مدينة نينوى روى حكاية مغايرة تمامًا إلى بعض زبائنه الالمقربين بأنّ جماعاتٍ مسلّحةً اختطفتهما؛ انبثقت في أراضي الوطن بعد عام ٢٠٠٣م...

أما الحاجة أم راضي التي تبيع الجبن، والزّبدة، ومشتقّات الحليب الريفي؛ فكانت لها رواية مختلفة تمامًا؛ إذ كانت تحكي لنساء الحي اللّائي اعتدْنَ وعوائلهنّ الإفطار على ما تبيعه: أنّهما هاجرا إلى بلاد الغربة؛ كي يرسلوا العملة الصّعبة إلى أمهاتهما... فتتعالى تعليقات النسوة المعتادة:

أمهاتهما سعيدات الحظّ، وليس مثل حظّنا العاثر...

أهلهما محظوظون، وليس مثل أولادنا الخائبين...

وما بين حكايا بائعي السّوق، وهموم صديقهم الأثير (سليم) ضاعت أخبارهما التي ذوت... وغابت... وانقطعت بعد مرور مدّة من الزمن على غيابهما... بحيث انشغل الناس بحكايا أخرى أكثر إثارة؛ لأنّ هذا الحي كسائر أحياء العراق؛ كعاصمته المدوّرة ثريّة بالأحداث والوقائع التي تجعل الحكايا تتنوّع وتنمو نموًّا مستمرًّا... ولكنها على حين غفلة تذوي... ثم تدور الأحداث بهمٍّ جديد... ينمو... ثم يذوي... وتدور الأحداث... وهكذا بلا توقّف، الأحداث و لاسيما المخيفة هي عجلة هذا البلد الذي لا يكفّ عن مغازلته للألم .

(٢)

في صبيحة يوم الجمعة التي اعتاد (سليم) أن يستريحَ فيها عن دكّانه؛ ليغسلَ همّه عند قبر والده (الحاج أحمد)؛ إذ سار في عُرف الحي أن يقضوا هذا اليوم بين شواخص مقابر أهلهم ومحبّيهم؛ لأنّ الحديث مع الميت حديث مفتوح لا رقابة عليه ولا ضرائب...

من عادة أهل تلعفر ولاسيما المنتمين إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن يدفنوا موتاهم في النجف الأشرف، أو قل شهداءهم؛ لأنّ أغلب موتاهم من المغدورين المعدومين بأيدي أزلام النظام البعثي الدكتاتوري، أو بأيدي العصابات التكفيرية... ولكن بعد عام ٢٠٠٥ وبسبب التحوّلات الخطيرة في البلد، وانبعاث سموم الطائفيّة بفعل المحتلّين وأذرعهم من المواطنين الزائفين ممّن له علاقة بالبعث والتكفيريين، صار من الصعوبة بمكان أن تنقل الجنائز من المدن العراقيّة ولا سيما الشمالية منها إلى النجف الأشرف؛ بسبب نقاط السيطرة الوهمية لعصابات القاعدة والتكفيريين وأعوانهم من

البعثيين وأزلام النظام البائد، فالخوف تسرّب إلى جثث الموتى ناهيك عن أرواح الأحياء...

يقعد (سليم) قُبالة قبر أبيه، ويفتح باب همومه وغمومه... آماله... آلامه التي تشخص في المكان قبل بلوغ خطواته عن بُعد...:

- إيهٍ ! يا أبي، تركتَ الحمل ثقيلًا على كاهلي ورحلت... أتدري أنّ أخوتي... ماذا أحدثوا بعدك؛ فلا عون فيهم... همّهم أن يسحبوا من المال فحسب... نعم المال فحسب... لو كنتَ موجودًا لأجبتني: أنت كبيرهم؛ وهم لّما يزالوا صغارًا، والكبير- في عُرفنا - والد... ولكن، أ تشعر بثقل الحزن الذي يتركه تخلّي الالمقربين منك عن المسؤولية، ولا هَمَّ لهم سوى العوائد؛ كي يتمتّعوا بمُتع الدّنيا...

أخذتْ (سليم) سكتة قصيرة مع تأمُل خفيف شفيف... ترتسم ابتسامة صغيرة على شفتيه الذّابلتين:

- أعتذرُ يا أبي عن وصفيَ المزيّف؛ فأيّة مُتع في دنيانا كي يتمتّع بها أخوتي... فقصارى فِعْلِهم بالمال: شراء شيء من الحلويات المصنوعة محلّيًّا، وإن بالغوا فيمكنهم أن يذهبوا إلى مركز العاصمة بغداد كي يتجولوا بين محلّاتها، وأسواقها، مع حفاظهم على

المال؛ لا طمعًا فيه؛ ولكنه لا يكفيهم لشراء شيء؛ فسلع العاصمة لا يقوى على شرائها القرويّون من أمثالنا، الكلّ هنا يؤمن بأنّنا مدينة، ولكن كل علامات القرية راسخة فينا...

يلملم سليم ما بقي من قواه كي يغادر المقابر البديلة بعد أن هجرت قوافل الجنائز طريقها إلى النجف الأشرف، فمقبر (قره تبّه) على مشارف تلعفر، والطريق منها إلى حيث يسكن محفوف بالمخاطر قبيل غروب الشمس، فمع غياب النور يغيب الأمان، ومع حلول الظلام تنتشر الخفافيش في الأرض كانتشار الحلكة في الآفاق...

الفصل الخامس

(١)

أم محمد تفترش السّجادة قبيل الغروب كعادتها؛ ولكنها هذا اليوم افترشتها منذ العصر؛ لأنّ ابنها الوحيد محمدًا لمّا يزل غائبًا منذ أيّام بلا دليل على أثره؛ فالجميع يجهلون وجهته حتى سارة؛ خطيبته منذ زمن ليس بالبعيد...

ممّا زاد القلق عندها أنّ ابنها محمدًا اختفى أثره في الوقت نفسه الذي اختفى فيه رفيق السّوء الذي كانت تحذّره منه، نعم، هو طارق ذلك الشّاب المشؤوم الذي لا يعلم كثير من الحي أصله وفصله؛ فهي وحدها وربّما زوجة الخبّاز إبراهيم تعلم كذلك؛ لأنّهما ينحدران من جغرافيّة واحدة...

كانت -دائمًا- توبّخ ولدها حين تراه برفقة طارق، أو ترى طارقًا يطرق الباب عليه؛ فهي تستحضر كلّ معاني الشُّؤم حين تراه؛ فالمعروف في أعرافهم أنّ منفلت الأصل... يكون منفلتَ الأخلاق، ولا أمان له...

الدّموع لا تفارق خدَّيْ العجوز أم محمد وخطيبته سارة التي زاد الشحوب في وجهها أكثر من ذي قبل...

ارتفعت نغمات الأذان الشّجيّ من المؤذِّن جواد الذي درج الأهالي على مناداته بـ» جواد المؤذّن» فارتفع معه نحيب الأم الفاقدة، وحسرات الخطيبة المنكسرة؛ فبحّة صوته المتحشرجة تهيّج الحزن في أرواح العجائز الفواقد الثّكالى، والبنات المنكسرات لفقد الأحبة؛ فتلتبس دموع الخشوع لله، والخضوع لمحبّة عباد الله، كأمواج البحر حين تتهادى على السّاحل؛ فيكون حزنُهنّ أشدَّ، وبكاؤهنّ أحدَّ...

يُطرَقُ الباب على العجوز الفاقدة الثّكلى دقّات ودقّات؛ لكنها غير آبهة بالطّرق كضيفتها العروس التي لم تفرح بزغاريد زفافها بعد، يزداد طرق الطّارق على بابها؛ تنتبه سارة بعد حين، تنهض لفتح الباب لتستعلم مَن الطّارق؟.

تفتح الباب بتوئدة مع قليل من التّركيز والقوّة:

- مَن الطّارق؟

تتحدّث في نفسها» لعنك الله يا طارق»؛ إذ بدأت سارة تؤمن بتشاؤم الأم منه، يجيبها» سليم»:

- أنا يا حاجة، جئت كي أطمئنَّ عليك.

تستقبله سارة بحزن شديد...:

- تفضّل يا أخي، هل من جديد بالله عليك؟...

- ما من جديد... لكن الحي كلّه مستنفر للبحث عن خيوط ولو ثانوية؛ كي نستدلّ منها على دليل يرشدنا على الغائب...

تنادي سارة على الحاجة...:

- يا أم محمد، هذا سليم ينوي الدخول...

تستوي الحاجة محاولةً النهوض على مضض...:

- تفضّل يا بُني؛ فما عاد في البيت حميميّة منذ أن غادره أخوك محمد.

تتنهّد أم محمد، وتأخذها موجة بكاء عارمة، لم تحتمل سارة شروع الحاجة بالانهيار، يحاول سليم أن يخفّفَ عنها شيئًا يسيرًا:

- يا حاجة، الحزن لا يجدي، والبكاء لا ينفع .

- وما عسى أن أفعلَ؛ وقد اختلس الزّمن وحيدي .

- احتسبي الأمر عند الله... وكلّنا أولادك يا حاجة...

- يا ولدي، الأمر ليس بالكلام؛ فالقلب يحترق على الفقْد؛ فكيف إذا كان الفقد لوحيدي، أنا أشتعلُ يا بُنيَّ.. كلّ لحظة مرّات ومرّات...

- ساعدَ الله قلبك يا حاجة...

يلتفت سليم إلى سارة... محاولًا حثّها على الصبر، وتصبير الحاجة...:

- يا أختي أنت مؤمنة ومثقفة وعليكِ أن تكوني عونًا للحاجة، فتقديرات الربّ لا اعتراض عليها، ومؤكد أنّها لحكمة...

لم تقوَ سارة على الإجابة أو التفاعل مع كلام سليم؛ لأنّ ما مرّ على تلعفر من محن جعلت الجميع ييأسون من عودة الغائب؛ الاّ الغائب المهدي المنتظر فالجميع برجاء ظهوره...

يحاول سليم أن يستدرجَ الحاجة أم محمد بالحديث، بعد أن آيس من مساعدة سارة له في لملمة أوجاع هذه العجوز الفاقدة، يفتح معها حوارات جانبية؛ لينسيَها شيئًا من ألمها ولو للحظات؛ لكنها عنيدة الحزن، وصعبة مراس الدّمع... إذ استمرّت بالبكاء ولكن بلا صوت؛ احترامًا لحديث ضيفها... وحينما وجدها لا تكترث لحديثه لجأ للرّوحانيّات؛ فقال لها:

- قد انتهى الحاج جواد المؤذن من أذانه؛ فلنقمْ للصّلاة؛ فلا ملجأ إلا إلى الله...

ترفع العجوز نظرها السماء...:

- ونِعْمَ الرّبُّ اللهُ، فلننهض يا ابنتي للصلاة...

تنهض العجوز بتؤدة، وبحركة تناسب العجائز المكروبات... تستقبل القِبلة، وتتوه مع الخشوع لله، والخضوع لحبّ عباد الله، وتتوه معها سارة وكأن لا أحد معهنّ؛ فيتناجين نجوى المنكسر إلى رب المكسورين والمستضعفين...

(٢)

يشعر سليم بأنّ وجوده مع الحاجة وسارة بلا فائدة؛ فقد أتمّ صلاته منذ ما يقارب السّاعة؛ وهو جالس في غرفة الضيوف لوحده؛ فالحاجة وسارة منقطعتان إلى ملكوت السّماء... يحاول سليم أن يرفعَ عن نفسه الحرج؛ ولكن دون جدوى حتى أحسّ أنّ مغادرته لازمة واجبة؛ فلا بدّ من ترْك العجوز وخطيبة ابنها في حالها اللّتين اعتادتا عليها؛ فالنساء المنكسرات يحبّذن العزلة؛ كي يعبرن عن حُزنِهن بحرية تامّة من دون قيود الرجال الذين يطالبوهن بالعقلانية، فحزن النساء مجنون وبلا قيود...

يلملم سليم ما تناثر من شتات حضوره، وينهض بإتجاه باب البيت؛ فتقع عيناه فَجأة على هاتف محمد على رفّ المصحف الذي اعتاد أهلنا وضعه في مداخل البيوت؛ كحرز للحفظ والتّفاؤل بالحراسة الرّبّانيّة...

يتأمل سليم الهاتف؛ إذ لعلّه متوهّم فالبيت شبه معتم؛ بسبب

إطفاء العجوز مصابيحه، يحملق قليلًا؛ فإذا هو هاتف محمد، من دون وعي أو سابق نيّة يصرخ:

- حاجة!! هذا هاتف محمد!

تنقطع العجوز المنقطعة عن الدّنيا من أثر هذه الصّرخة... تصرخ وهي مهرولة وكأنّ الله بعث فيها طاقة الشباب من جديد؛ بالضبط كدبيب الشباب بزليخة العجوز... إذ لم تلحق بها سارة الشابّة حين انطلقتا نحو صوت سليم...:

- أين هو؟؟
- هذا يا حاجة
- ما هذا يا سليم؟
- هذا نقال محمد.

تجلس منهارةً مستندةً على يد سارة؛ وهي تولول:

- عفا الله عنك؛ حسبتك تقول هذا محمد.
- لا يا أمي فأنا قلت هذا نقال محمد.
- أنا أعلم به؛ فما الجديد؟.
- لا يا أمي ترْكُ الهاتف يعني أنّ هناك أمرًا ما؛ فلا بدّ من فتح الهاتف، ومعرفة ما يمكن معرفته منه؛ فهو الخيط الثانوي

الذي يمكن أن يرشدنا إلى دليل قاطع يدلّنا على وجود محمد، أو لا أقل على سبب غيابه .

يحاول سليم فتح الموبايل لكنه بلا شحن، يلتفت إلى العجوز، ويقول:

- آتيني بالشّاحن يا أمي.

بعد مدّة وجيزة يُشحن الهاتف بجزء من طاقته الكهربائيّة، يحاول سليم فتح الهاتف؛ ولكنه يصطدم بأنّ للهاتف رمزًا؛ يخاطب نفسه...:

- هل يعقل يا رجل أن يترك إنسان هاتفه بلا رمز للدّخول؟...

لم يَخبْ رجاء سليم، بل ارتفعت عزيمته بعد عثوره على الهاتف النقال من أجل دوام البحث... يطلب من العجوز أن يأخذ الهاتف إلى تِقَنِيّ الهواتف المحمولة كي يفكّ شيفرة الرّمز؛ من أجل أن يطّلع على المحتويات...

على خيبة أمل، وقليل من التفاؤل، توافق العجوز الآيسة إلا من رحمة الله على أيّ شيء يمكن أن يهديَها إلى ولدها...

لم تلتفت إلى حماسة سارة المفتعلة...:

- نعم يا حاجة، الهاتف النقال فأل خير كي يرشدنا إلى دليل...

النساء يشعرن ببعضهنَّ... كانت الحاجة على يقين أنّ سارة كان تفتعل هذه الحماسة من أجل مواساتها، والاً فقلبها يغلي كقلبها...

يغادر سليم بيت المنكسرات؛ ليأخذ معه محفّز العزيمة بداخله... هاتف محمد؛ إذ لعلّ فيه ما يفيد في هذا الوقت المتخم باليأس والفقد...

الفصل السادس

(١)

يستغرب أهل الحي من جولة مجموعة من الرجال الغرباء في أزقّة سكناهم، يتبادل أهله الاتصال ببعضهم من أجل الاتّفاق على التّعرّض لهم؛ إذ لم تعد البلادُ آمنة مع الأشهر المتأخّرة من عام ٢٠٠٦م؛ فالغرباء صاروا في هذه الأيّام علامة قلق لا ترحاب...

عانت أغلب مناطق تلعفر كأغلب مناطق بلدنا الحبيب، ولا سيما ذات الغالبية من منتمي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، من تعرّضات خطيرة من قبل أغراب... بعضهم ملثّمون، وبعضهم مكشوفو الوجوه... وتبيّن من اصطياد مجموعة من أفراد العصابات الغريبة أنّ بعضهم ليسوا عراقيين أصلًا، فمن بينهم عرب، ومن بينهم أجانب... كانوا متعاونين مع النظام البائد، أو مستفيدين منه، وجانب كبير منهم من المغرَّر بهم أو من شذّاذ بلدانهم التي لفظتهم عنها، وكبّتهم كالنفايات على أرض وطننا المستضعف؛ الذي صار بعد الاحتلال مفتوح الأبواب على من هبّ ودبّ...

أوعز الحاج علي الصفّار الذي كان كبير الحي ومرجِع الأهالي، إلى مجموعة من الشباب المسلّحين بأسلحة أهليّة على محاصرة الغرباء من طرفَيْ الزّقاق الكبير الذي يتوسّط الحي، وفعلًا تمّ ما أراده؛ و أوصاهم ألّا يطلقوا النّار إلا عند الاضطرار؛ فهم يريدون حماية حيّهم؛ لا قتل الناس، فربّما هؤلاء الغرباء مستطرقون، أو تائهون... وحينما يستعلمون منهم تتبين لهم الحقيقة المضمرة...

لمّا أحس الغرباء أن الطوق أحاط بهم، وهم في دائرة مغلقة؛ سلّموا أنفسهم من دون صِدام... طوّق الشباب الجماعة الغريبة واصطحبوهم إلى دار الحاج الصفّار...

لمّا لم يبادر الغرباء بالمقاومة، واسترسلوا مع الشباب بأريحية إلى حيث دار الصفار؛ تأكّد الحاج علي أنّهم مسالمون فرحّب بهم واستضافهم الضّيافة المعتادة على بساطتها...

حينما دار الحوار بين الحاج علي الصفار وبينهم تبيّن أنّ سبب حضورهم كان على نيّة اللقاء بأهل طارق الحردان الذي دلّهم الناس على حيّه بعد جولة متعبة وخطرة في الأحياء المجاورة؛ لأنّ التجوال في مناطق ليست مناطق سكناك؛ يعني واحدًا من ثلاثة:... الدخول في صراع ربما يكون مسلّحًا، أو الاعتقال، أو الفقدان من دون رجعة...

وريثما أعدَّ بيت الحاج الصفّار الغداء للغرباء الّذين صاروا ضيوفًا؛ استُقدِمَ أبو طارق إلى مجلسه؛ كي يستعلمَ الغرباء منه أمام وجهاء الحي ولفيف شبابه...

وحينما حلّ أبو طارق الحردان مجلس الصّفار حتى بادره الغرباء بالحديث:

- يا أبا طارق! إنّنا آباء شباب اختفوا بفعل اتصال ولدك طارق بهم؛ وقد انقطعت أخبارهم منذ أن دعاهم إلى رحلة نجهل سببها، و لا نعرف وجهتها .

تبدو ملامح الارتباك على وجه الحردان... يحاول أن يخرج من مأزق الضيق الذي بات فيه، يباغت الغرباء بسؤال عدّه غير تقليديّ...:

- ليس من باب الطعن بما تقولون، ولكن ما دليلكم على أنّ ولدي طارق هو الذي دعاهم؟ .

يجيبه كبيرهم الذي بانت عليه ملامح الجاه والحكمة...:

- طلبت حقّك...

يلتفت إلى الرجال الذين معه، يومئ لهم بإشارة فهموا منها أن استخرجوا الدليل... يبادر أحد الرجال الذين برفقته باستخراج

هاتفه النقال ويفتح الرّسائل الصّوتيّة التي كانت متبادلة بين ولده الفقيد وطارق كانت كلماتها الصوتية تدلّ على وجود اتّفاق سابق على اللقاء في مقهى اسمه على وفق الرسائل » مقهى العزيز» قرب منطقة القلعة، ومنها يتمّ التّوجّه إلى المكان المتّفق عليه؛ إذ تنصّ الرّسائل الصّوتيّة على أنّه» المكان المعنيّ» من دون الجهر باسمه أو عنوانه... ويتوجّه وجيه الغرباء بالحديث إلى الحاج علي الصفّار...:

- يا حاج، لقد استمعت إلى الرسالة الصوتية بين أحد شبابنا وابنكم طارق، ونحن لا نتّهم أحدًا بسوء، ولكن لمجرد التساؤل يا حاج، هل تشفير وجهة رحلتهم اطمئنان أم ريبة؟...

يحرّك الحاج علي الصفار يده على شيبات لحيته التي زادته وقارًا، ويجيب السائل...:

- لو كانت رحلتهم طبيعية فلماذا يشفّرون وجهتهم؟... أشاطرك الرأي يا حاج على ظنّك المريب، ونحن كذلك مرتابون...

بعد سماع الجميع الحوارية بين وجيه الضيوف والحاج علي الصفّار يتشجّعون على الحديث بأريحية؛ لما وجدوا من أهل تلعفر من تفهّم وحكمة... إذ أكّد جميع الغرباء أنّهم تلقّوا الرّسائل عينها

على أجهزة النقال العائدة إلى أبنائهم المفقودين؛ وكان مصدر الدّعوة واحد، هو طارق بن فيصل الحردان .

يتلفت الحاج علي الصفّار إلى جلسائه من أهل حيّه وهو مستغرب... يستثمر وجيه الغرباء هذه الاستجابة، فيبادر الحاج الصفار بالسؤال:

- يا حاج ! بالله عليك بِمَ تفسّرون هذا الأمر؟ وأشاطر الحضور الكريم من أبناء حيّكم المبارك بماذا تفسّرون هذه الدّعوة الغريبة، وتشفير المكان، وغياب أبنائنا جميعًا في وقت واحد، وعلى يد شخص واحد؟.

يلتفت الحاج الصفّار إلى أبي طارق، وفي عينيه تساؤل وريبة... أعيى أبو طارق الجواب، وشعر بضيق خانق وسط نظرات تنهش روحه قبل جسده من الجميع حتى من أبناء حيّه... ممّا اضطر إلى مبادرة الجميع باعتراف خطِر:

- يا جماعة، بعد الذي استمعت إليه من اتّهامات فلا بدّ لي من أن أخبرَكم بشيء سيكون مدعاة لاستغرابكم جميعًا الاّ واحدًا .

يتلفّت الجميع بحيرة ظانّين أنّ الاعتراف له علاقة بالخطف، أو

مكان الخطف؛ فترتفع جَلَبة وضوضاء تنمّ عن اندهاش واستغراب خطِرين...

حينما ضجّ المجلس بالجَلَبة خشي أبو طارق أن يستنكرَ الناس اعترافه؛ فطلب من الحاج الصفّار أن يستعينَ بإبراهيم الخبّاز- وهو الواحد الذي استثناه بخطابه قبل قليل -؛ لأنّ الخبّاز مُطّلِع على التفاصيل الأوّليّة لِمَا يريد أن يقولَه، فأومأ الحاج الصفّار إلى الخبّاز أن يستجيبَ إلى أبي طارق في ما يريد أن يطلبه منه.

يستشعر الجميع الارتباك الذي بان على ملامح إبراهيم الخبّاز... وهي علامة على صدق نيّات الحردان في استعانته به... يلتفت أبو طارق إلى الخبّاز قائلًا:

- يا حاج إبراهيم! هل طارق ولدي؟ .

تأخذ الجالسين موجةُ استنكارٍ، وتعجّبٍ، انثار بعضهم من هذا التساؤل فبادره بالقول:

- نعم وهذا ما عرفنا طَوالَ المدّة السابقة؟.

يلتمس أبو طارق الحضور بعدم الجواب، أو مقاطعته، وأن يسمحوا له بمحاورة الخبّاز... يتلعثم الخبّاز في أوّل الأمر، ثمّ ينطلق بالحديث حينما لم يجد بُدًّا منه:

- يا حاج علي، ويا أخوتي من الحاضرين جميعاً! ما أعرفه معرفة جادّة أنّ الحاج فيصل الحردان وحينما كنّا نازحين من مدينتنا وجدنا طفلًا رضيعًا مرميًا على قارعة الطّريق قرب إحدى المزابل؛ ولأنّ الحاج فيصل عقيم، ولا يعقّب؛ حَمَلَ الطّفل وربّاه هو وزوجته ليأنسَ وحدتهم...

يوزّع الحردان نظراته على الجميع، ويبادرهم بالقول:

- لا أخفيكم أخوتي فمن ربّيته، وأعني بذلك (طارق) أتعبني على طول الخطّ، وحتى أنّ زوجتي عانت منه بسبب تصرفات غير مفهومة كان يقوم بها حين كان صغيرًا، أستحيي من ذكرها بمحضركم... وكنت أعاقبه دائمًا، وكان بسبب عقابي له يبات لياليَ خارج البيت...

يستنفر الغرباء من هذا القول... تضجّ أصواتهم بالاحتجاج... يشير إليهم وجيههم بالسكوت، ويبادر الحاج علي الصفار بسؤال وجده الصفّار وجيهًا من خلال ملامح وجهه...:

- يا حاج علي ألا تجد أنّ هذا الكلام هروبًا من تحمّل المسؤولية؛ فأولادنا ضاعوا بسبب ولده؛ وهو الآن يخبرنا بقصّة شاهدها صديقه وابن مدينته - على حدّ وصفه -؛ فهل تريدنا تصديق

هذا الكلام؟!... وبصراحة: قبل كلامه الأخير هذا كنّا نستعلم منه فقط، وكانت نياتنا مختلطة وغير واضحة، أما الآن فنحن مضطّرون إلى تصفية نياتنا واتهامه هو وابنه الذي يريد أن يتنصّل منه بهذه الحجّة الواهية.

يلتفت الحاج الصفّار إلى الضّيوف الغرباء ويبادرهم بالقول...:

- يا جماعة، استهدوا بالله واسمحوا لنا أن نفهم الكلام...

يطلب الحاج علي الخلوة مع الحردان في الغرفة الدّاخليّة من المنزل، يدخلان إليها، ويبادره الحاج الصفّار بالحوار...:

- يا الحردان - قالها بعصبيّة وغضب شديدين - إلى متى يلازمك الكذب؟! فقد زاد عمرك على السّتين وأنت ما زلت في سجيّتك المزعجة؛ الأمر ليس طُرفَة، فنضحك عليها كما عوّدتنا بأقاصيصك الكاذبة في مسامراتنا الليلية، هذه مصائر شباب يا رجل؛ فكن صادقًا وشجاعًا لمرّة واحدة في حياتك.

- والله يا حاج .

يقاطعه الحاج الصفّار، ويقترب من وجهه مهدّدًا...:

- يا الحردان لو سمحت للغرباء بأخذك فلن ينفعك

قسمك الكاذب، أخبرني كي أنقذك، وإلا فأنت وهم... أقسم باللهِ ...

ينزل الحردان على قدمي الحاج الصفّار ليقبلَها، فينهره:

- واللهِ يا حاج ربّما هذا قسمي الوحيد في حياتي الذي أَصْدُقُ فيه، وإذا كنت كاذبًا؛ فهل الخبّاز أيضًا كاذب؟.

يتأمل الصفّار بقول الحردان، ويقول له:

- هل حقًّا ما ذكرته؟.

- والله يا حاج ما قلته صحيح مئة بالمئة...

- سبحان الله فسجايا طارق لا يحملها إلا لقيط، ولقيط مشبوه أيضًا...

(٢)

ينجح تقنيّ الموبايلات بفتح هاتف محمد المفقود، يتلقّف سليم الهاتف من يده ويبدأ برحلة البحث في ملفّاته... يقلّب... يصغي... يتأمل...

يشعر سليم بالخيبة... يلتفت إلى تقنيّ الموبايل... يسلّمه استحقاقه الماليّ، وينسحب يجرّ الخطى بألم... كان يأمُل أن يجدَ شيئًا لكنه لم يجد...

يصل أزقّة الحي... يقترب من بيت الحاج الصفّار؛ فينتبه على التّجمّهر غير الطبيعي، ينسى محمد وينشغل بالمشهد الذي أمامه؛ فتجمّهر الناس في باب الحاج الصفّار يعني وجود ما يُقلق... يقترب أكثر ويبادر أوّل الشباب المتجمّهرين القريب منه...:

- ماذا هناك، هل حدث شيء؟.
- نعم يا سليم؛ إذ حضر مجموعة رجال غرباء...

ويأخذ (الشاب) بسرد القصّة حتى أتى على آخرها... حينها

ينتبه أنّه لم يبحث في مراسلات طارق ومحمد يبتعد قليلًا عن الجمهرة، ويشرع بالبحث في مراسلات المعنيين في الواتس آب، التلكرام، الفايبر، الماسنجر... لم يجد شيئًا لافتًا حتى انتبه إلى تطبيق الإيمو... يفتح النّافذة بينهما فيجد سلسلة من الرّسائل الصّوتيّة بين محمد وطارق... يُصغي فتتغيّر ملامحه إلى الحنق، يشحب وجهه كالشمس، تغشاه الرّيبة والقلق الشديدتان... ويبدأ بحديثٍ مع نفسه:

- قاتلك الله يا طارق... كنت في مرمى حدس العجوز لكننا لم نصدقها... كيف انطلت علينا ألاعيبك؟...

كرّرها مرارًا، كلّما ينتهي من سماع رسالة صوتيّة، يكرر اللّعنة والدّعاء على طارق... وحينما ينتهي من الرّسائل الصّوتيّة، يدخل بلا وعي على مجلس الحاج الصفّار، ومن دون أن يلقيَ السلام يوجّه الكلام إلى الحاج:

- حاج بيت الحردان أساس البلاء في حيّنا، ونحن لا نعلم...

يلتفت الحاج الصفّار إلى سليم، ويخاطبه بحميميّة:

- اجلس يا ولدي؛ فالأمر ليس كما تظنّ...

- يا حاج ...

يقاطعه الصفار ويطلب منه الهدوء؛ فيُحرَج سليم ويجلس مفتعلًا الهدوء؛ ولكنه من الدّاخل يغلي؛ إذ تداعت المشاهد السّيّئة على مخيّلته... ربما... لعلّ... وتسرح مخيلته في ما وقع من أوجاع:

تحضر في ذاكرة سليم كيف أنّه وجد أباه مرميًّا على الأرض متشحّطًا بدمه لا يعرف من اغتاله... إذ لا ذنب له إلا لأنّه جاء عائدًا من زيارة الإمام الحسين عليه السلام...

انقطع سليم عمّن حوله من الرجال ودخل في مناجاةٍ مع نفسه فيها الألم والتوبيخ والحسرة...:

كيف لم ألتفت إلى أنّ النّاجيَ الوحيد من المجزرة كان طارق !!! ذُبح جميع الرجال والنّساء في مثلّث الموت إلا هو، كان عذره أنّه الشاب الوحيد فعطفوا عليه !!!... وهل للمجرمين عواطف كي يشفقوا عليه؟...

كيف انطلت علينا عباراته قبل السفر لزيارة الحسين عليه السلام من أنّه لا يمكن أن يفوّت ليلة جمعة من دون أن يكون في كربلاء... لكنه لم يكن صادقًا إذ لا يذهب الاّ نادرًا وكان يغيب عنّا، وحينما نسأل يقول إنّه كان في كربلاء... وفي المرّات التي يذهب فيها إلى كربلاء جهارًا مع حملات الحي يُحدث السوء... وكان يغلّف كذبه بأن الحسين عليه السلام

حفظه من شرّ الأشرار...

كيف صدّقنا هذه الفِرية؟ ألم نعهد من أبيه الكذب؟

ما ألعنك يا ملعون! أنت يا طارق!! إذ أوهمتنا أنّك تستحيي من أقاويل أبيك الحردان الكاذبة، وأنّك مؤمن وخلوق...

أيّ إيمان الذي يجعلك تبيع أهلك وناسك !!... قاتلك الله أيّها المتخلّق، ولكن بأخلاق الشّيطان !...

ما إن غادر الغرباء مجلس الحاج الصفّار... حتى أمسك سليم بخناق الحردان، فتجمهر الناس عليه ليخلّصوه... وتصايح الجمع، حتى أنهى النّزاع الحاج الصفّار بهيبته وعلوّ صوته...

- اجلس يا بُنيَّ...

يهدأ سليم قليلًا، يحاول أن يكتمَ أنفاسه المتعالية، لكن نظراته ما زالت تقدح شررًا؛ وهي تحملق بوجه الحردان... يقترب منه الحاج الصفّار محاولًا تهدئته، يضع يده على كتفه:

- يا بُنيَّ، تبيّن أنّ طارقًا ليس ابن الحردان...

يلتفت سليم إلى الحاج الصفّار؛ وهو غاضب غير مصدّق:

- يا حاج، هذه ألاعيب الحردان... فحينما وُضع بين قوسين خرج منهما بأقصر الطّرق وهو الكذب، ألا تعرفه يا حاج؛

فهو كذّاب الحي الذي نستمتع بأكاذيبه كلّ ليلة...

- لا يا بُنيَّ؛ فقد أيّد إبراهيم الخبّاز هذه القصّة...

يستشعر سليم أنّ خيط الأمل الذي وجده قد انقطع بهذا المخرج الذي اصطنعه الحردان... تأخذه موجة وجوم أقعدته مقرفصًا في مجلس الصفّار...

الفصل السابع

(١)

في صباح اليوم الثاني من واقعة الغرباء، وكشف أصل طارق المجهول، استفاق أهالي الحي على غياب الحردان المفاجئ؛ تاركًا خلفه سلسلة طويلة من التّساؤلات التي لا إجابة لها، أخذ معه جميع الإجابات، حتى تصديق قصّة أنّ (طارقا) ليس ابنه، وأنّه لقيط، لم تجفَّ في ذهن (أهالي الحي) الطّري...

الغريب في الأمر أنّ الحردان ترك باب بيته مشرعًا حين غاب؛ إذ اختلف الناس في تفسيرهم لهذه الفعلة...

فمنهم من قال؛ وهو الرّأي الأكثر شيوعًا؛ إذ إنّه فرّ سريعًا فلم يستطع أن يوصدَ بابه...

ومنهم من قال؛ وهو أواسط الآراء؛ إنّه يشير إلى أنّ هروبه ليس بعيداً فربّما يعود مع عصابة ابنه لينتقمَ من الحي...

ومنهم من قال؛ وهو أقل الآراء؛ إنّه يطلب براءة الذّمّة؛ لأنّ فتح الباب يعني انفتاح القلب والمحبّة، وهو الرّأي الذي مال إليه من كان

يحبّ الحردان...

هذه الآراء كلّها لم تشفِ غليل سليم الذي طغت نار حرقته أكثر من حرقة أم محمد التي حاول مواساتها قبل يومين،... انكشاف هذا السّرّ فتق جروح الماضي، ورشّ عليها الملح...

من دون وعي أخذته قدماه إلى بيت أم محمد، طرق الباب بجنون، ما زال يطرق الباب حتى فتحت أم محمد العجوز باب خيبتها .

دخل سليم باحة البيت؛ وهو يصرخ:

- يا حبيبي يا محمد، هل التقيت بأبي؛ فقاتلكما واحد

حينما سمعت أم محمد صراخ سليم؛ وهو ينعى ولدها، أمسكت بخناقه، وقالت له:

- ويحك سليم !!! ماذا تقول !!! محمد قُتِل !!! محمد مات !!!

يجيبها سليم من دون وعي...:

- بيت حردان قتلوه كما قتلوا أبي .!!! ...

تصرخ العجوز صرخة يتجمّع على علوّها وحرقتها أهلُ الحي... أحاطت نساء الحي بالعجوز حينما وجدنها قد شقّت ثوبها وأرخت حجابها... أما الرجال فأمسكوا بسليم؛ وهو يضرب على

رأسه؛ وقد فَقَدَ نصف وعيه؛ وهو يصرخ بصراخه السابق معولًا مولولًا على موت أبيه ومحمد...

حاولت النّسوة تهدئة العجوز من دون فائدة... أما الرجال فحاولوا تهدئة سليم، وحينما هدأ قليلًا التفت إلى فداحة ما فعله؛ فهرب من بيت أم محمد خجلًا منها... إذ أحسّ أنّه كان على غير هدًى حينما أنبأها بقتل محمد؛ وهو غير متأكّد؛ لكنها فورة الحزن التي تمنع العقل من الوعي...

بعد حين من الصّخب والصّراخ واللّطم هدأت العجوز... وحاولت نساء القرية تعريفها الحقيقة، وأنّ سليم صرخ بقوله؛ وهو بغير وعي؛ لأنّه متألّم منذ أمس بسبب كشف تورّط طارق باختفاء أبناء رجال غرباء من الأحياء المجاورة...

حينها جلست العجوز وابتسمت على الرّغم من استمرار غياب ابنها قائلةً:

- الله يبشّركنّ بالخير، يعني محمد غير مقتول! لِيغبْ لا ضير في ذلك... ولكن لا يموت؛ فليس لي غيره، أبوه غدر به الإرهابيون البعثيون حينما عاد من عمله، هل تذكرْنَ كيف كان هيبة؛ وهو يلبس لباس الشرطة، ألم يكن مصدر أمان لحيّنا.

- نعم يا أم محمد... الله يرحمه كان رجلًا شهمًا وخيّرًا...

- نعمْ! يا أم محمد لم نرَ منه إلا الغيرة؛ ولكنهم الإرهابيّون الّذين كانوا يستهدفون الشرطة والجيش؛ ليسرحوا ويمرحوا بفسادهم في بلادنا... قاتلهم الله...

- يا نساء! كنت أحذّر من طارق وأبيه المزعوم الحردان، كنت أقول لكُنَّ هم عصابة خفيّة، لكنكُنَّ لم تكن تصدقنني...

- يا أم محمد ما أدرانا؛ فلسنا نعلم أنّ (طارق) لقيط إلا أمس حينما أخبرنا الخبّاز في محضر الغرباء الذين جاؤوا يطلبون ابنه اللقيط...

- هل علمتنّ الآن أنّي كنت صادقة، ولربّما هو وراء خطف ابني أيضًا؛ لأنّه عرف أنّي سأفضحه...

- ربّما يا أم محمد... المهمّ لندعُ الله أن يعيدَ محمدًا سالمًا ما دام غائبًا، وليس مقتولًا، فهو أرحم الراحمين...

(٢)

إلى ضفاف الوادي حيث كان يجلس سليم ومحمد وصديقهم الموهوم طارق... سارت أقدام سليم بلا هدًى إلى حيث هي... لم يكن في الوادي المتعرّج سوى أصوات الحيوانات الأليفة... فالمفترسات لم يكنّ من حيوانات تلعفر...

سرح سليم في ملكوت الهدوء الذي أحاط به في أشدّ الأوقات إليه... كي يقلّب تاريخ مواجعه مع اللقيط طارق... ويصفّ جراحه: جرحًا جرحًا على حائط مبكاه...

بعد وقت ليس بالطويل أحسّ سليم أن سير أقدام بشر متّجهة إليه، فأحجار المرتفعات المحيطة بالوادي تفضح بدحرجتها سير القادمين... حدّث نفسه:

- لعلّه طارق، والله إن كان هو لأجفّفن دمه كما جفّ نهر» قرمز دره»...

يفتعل سليم عدم المبالاة كي يوقع بطارق الذي يحاول ترصّده...

شعر سليم بأنّ الخطوات اقتربت منه على حذر... وظنّه بأن القادم طارق أخذ بالاتساع في ذهنه...

- السلام عليكم يا سليم ...

يلتفت سليم متفاجئًا على صوت نسائيّ مفعم باللهاث من وقع صعود المرتفع... وكأنّه صوت سارة...:

- سارة ! ما الذي جاء بك إلى هنا؟...

- لقد سمعت من نساء الحي أنّك جئت مولولًا إلى بيت أم محمد وبجعبتك خبر عن محمد، فبحثت عنك في أزقّة الحي ولم أجدك، فقلت إذن انت على ضفاف الوادي حيث ذكرى محمد وطارق...

- لا تلفظي اسم اللقيط على لسانك...

- ومن اللقيط؟...

- طارق...

- طارق؟....

- نعم يا سارة فهو سبب البلاءات في حيّنا جميعًا هو وأبوه المزعوم الحردان...

- يا سليم لا أستطيع التأخر على الحي، وكما تعلم لا

يليق بنا أن نكون لوحدنا، ولكنه الوجع الذي جاء بي على غير هدًى، فهل يمكن أن نعود إلى الحي وتقصّ علي ما جرى بالطريق...

- مؤكد يا أختي... فلنذهب...

يجرّ المترافقان خطاهما بخيبة... يتصفّحان معًا صفحات الحزن التي سبّبها طارق اللقيط على حين غفلة من الجميع... وكيف كان مكشوفًا في بصيرة العجوز أم الفقيد (محمد) فحسب...

الفصل الثامن

(١)

تجمّع رجال الحي جميعهم في مجلس الحاج الصفّار حتى أنّ المكان لم يسعهم؛ فبقي الشباب واقفين في بابه يستمعون إلى حوار لم يألفوا حسحسة حرارته... إذ لم يكن هذا المجلس معقودًا للحديث عن الناس بالسّوء... بل هو مجلس لحلّ المشاكل ودفع الشّرور... لكن مرور الغرباء عليه، ونزولهم فيه؛ كان مدعاةً لانبجاس جمْر الثّأر التي ما أطفأت نار الوجع...

كلّ رجل من رجال الحي وضع حمله في هذا اليوم في حضن مجلس الحاج علي الصفّار... فكلّهم نالهم شرر الحردان ولقيطه طارق وهم لا يشعرون...

لم يكن في جوّ هذا المجلس إلا ثلاث:

- صراخ أليم...
- شتيمة نكراء للحردان ولقيطه...
- بكاء رجال حارّ... وما أقساه من بكاء؛ لأنّه بكاء

رجال !!! .

لقمان البصير الذي فقدَ بصره في محاولةٍ من مجهولين لحرق مسجد الحي، وتصدّى للفاعلين، أدلى بشهادته أمام الجميع بأنّه كان يكذّب سمعه، ولم يُفصِح بما تناهى إلى مسمعه في تلك الليلة... نعمّ أكّد لهم اليوم أنّه سمع ما يشبه صوت طارق بين الجمع المهاجم؛ لكنَه لم يعترف بهذا الأمر؛ لأنّه لم يكن يظنّ أنّ هذا اللقيط خسيسٌ إلى هذه الدّرجة بحيث يحرق بيت الله لا لشيء إلا لأنّ المصلّين من أتباع أهل البيت عليهم السلام...

يسأله الحاج الصفّار...:

- يا لقمان إنّا على يقين أنّ اللقيط هو شريك في بلاءات الحي إن لم يكن هو فاعلها، ولكن لا يكون شمّاعة نعلّق عليها جراحنا...

- يا حاج ! صدّقني سمعت ما يشبه صوته، وليس هذا فقط، بل كان بي ليلتها رغبة لإحياء الليل متهجّدًا... وقد لمحت اللقيط في باب المسجد الذي كان موصدًا، وحينما خرجت لأفتح له الباب ظنًّا مني أنّه يريد الصلاة، وجدته قد ابتعد... ولما أطفأت الأنوار... وغلّقت باب المسجد من أجل الرجوع إلى البيت... حدث

ما تعرفونه...

- إذن متى سمعت صوته؟ ولربما كان يهرع للنجدة كباقي أهل الحي؟...

- لا يا حاج! سمعت صوته إثناء العراك مع الفاعلين قبل تجمهر الأهالي...

يسود الصمت على المجلس قليلًا... ثم يبادر الحاج كريم بالحديث... فهو كان الشاهد الوحيد على هروب الملثّمين الّذين وضعوا العبوة اللّاصقة في سيّارة الضابط سلام علي حينما كان يقود سيارته متوجّهًا إلى العمل، قال بوضوح:

- لم أكن قريبًا جدًّا بحيث يستطيع الضابط المغدور سماعي، أنا حذّرته بصوت عالٍ لكن للأسف لم يكن يسمعني، بعدها كنت مضطرًّا للوقوف كي لا تنالَني شظايا العبوة حينما تنفجر... وكنت أتألّم في مرأى انفجار سيارة هذا الضابط الشّهم الذي لم نرَ منه إلا الغيرة على البلد وأمنه... وربّما يستغرب الحضور من ذكري لهذه الحادثة، ويتساءل؛ ما دخلها في ما نحن فيه من حديثٍ اليومَ؟ يا رجال! والله بعد أيّام وجدت اللّثام الأسود المنقوش على كتفَي طارق، والملابس السّوداء الكالحة التي كان يرتديها الجالس خلف

سائق الدّراجة النّاريّة اللّذين ألصقا العبوة في سيّارة الضابط المغدور؛ كانت هي التي على جلد ذلك الخسيس طارق؛ لكني استعذت من الشّيطان الرّجيم؛ وقلت ما لطارق وحركة الغدر هذه...؟؟!!...

لم يكن حديث لقمان البصير مضيفًا إلى مائدة الجلسة سوى طبقًا من الهمّ والندبة على وضع حسن ظنّهم في غير موضعه، واستمرار طيبتهم المفرطة تُجاه الغرباء في توريطهم بما لا يُحمد عقباه...

وكان المعلّم (فهمي عبد الحميد) وهو من أكثر الرجال ثقافةً بحكم مهنته؛ متحفّزًا ليضيف طبقًا آخر من الهمّ على مائدة المجلس، فتنهّد تنهيدة حرّى جعلت الحضور، على كثرتهم، يلتفتون إليه؛ حينها فاجأ الجميع بقوله:

- إنّه في أيّام نهاية العام الدّراسيّ الماضي وجدتُ طارقًا في مختبر المدرسة؛ يحاول أن يسرقَ بعض الموادّ الكيماويّة التّعليميّة، وعلى الرّغم من شحّة الموادّ بسبب وضع البلد، وسوء حاله إلا أنّ مدرّس الكيمياء جاسم كان يشتري الموادّ على حسابه الخاصّ خدمةً لطلبته... حينها لم أكن أشكّ في طارق، لكن اليوم ثبت بالدّليل أنّه كان يسرق الموادّ الكيماويّة من أجل عمليّاته التّخريبيّة، أتعلمون ماذا تفعل هذه الموادّ، هي تحرق الجلد، لقد سرق ماء التيزاب الذي نسمّيه

ماء النّار، وأظنّ أنّكم تعرفون إلامَ أشير، نعم يا أحبّتي! أشير إلى زينب ابنة الشيخ مضر إمام المسجد؛ طارق الخسيس هو الذي حرق وجهها نكايةً بأبيها حينما ذمّ تنظيم القاعدة، وحزب البعث أيّام هدم قبّتَي العسكريّين عليهما السلام، وإن أردتم الدليل؛ فتلك الورقة التي تركها الفاعل، قرب البنت التي بقيت تلتاع في الشّارع بعدما خرجت من مدرستها الابتدائيّة؛ المكتوب فيها:

(هذا جزاء من يتطاول على أسياده،
كان بإمكاننا قتلها، ولكننا حرقنا
وجهها لنقتلك روحيًّا أيّها الرّافضيّ)...

مَن له مصلحة في هذا الفعل؟! ومَن تقع عليه اللّائمة؛ وقد رأيته متلبّسًا يسرق التّيزاب؟ .

سادَ المجلسَ وجومٌ ساخن؛ الرجالُ صدورهم تغلي كغلي المِرجَل، وكذلك الغفلةُ التي كانوا فيها؛ فالخسيسون كانوا بين ظهرانيّهم؛ وهم لا يشعرون...

على الرغم من تكشّف اللثام عن كثير من الأحداث الغامضة التي ذهب ضحيتها كثير من أهل الحي، لم يكن الجميع مرتاحين لهذا الكشف لا لأنّه غير سليم، ولكن لأنّه سيجبرهم ألاّ يتعاملون مع الغريب بطيبة مفرطة؛ لأنّ حسن الظن ليس دومًا على صواب...

ووسط هذا الكمّ الكبير من الوجوم توجّه الحاج الصفّار إلى الجميع بقوله...:

- يا أخوتي جميعًا، هل تعلمون أنّنا أفرطنا بحسن الظنّ، في حين نصحنها أهل بيت النبوة صلوات الله تعالى عليهم أجمعين بخلاف ذلك، فهذا إمامنا الكاظم عليه السلام يقول: إذا رأيتم الحقّ لا يؤمر به، والباطل لا يُتناهى عنه، فحسن الظنّ لا يَحلُّ... فهل نحن يا أخوتي في زمن غير زمن كما وصفه الإمام الكاظم عليه السلام، فالحقّ لا يؤمر به، والباطل لا يُتناهى عنه، فكيف جاز لنا أن نحلّ حسن الظن وهو في مثل هذا ظروف غير حلال... علينا يا أخوتي أن نكون على يقظة تامّة؛ كي لا نقع في الشَّرَك نفسه...

يؤمّن الجميع على كلام الحاج... ويتحوّل ضجيجهم إلى صمت مطبق... فكلّ واحد منهم أخذ بمراجعة حساباته... نفسه... والآتي من قراراته على وفق المستجدّات التي انكشفت عن قريب...

(٢)

استمرّ الوجوم مدّةً من الزّمن حتى قطع الهدوءَ المتخافتَ صوتٌ متراعشٌ من أسَنّ رجل في الحي؛ الحاج شهاب أبو مؤمّل الذي زاد سنُّه على السّبعين عامًا؛ إذ تحدّث الشيخ بطريقة مغايرة حتى ظنّ الجميع أنّه خرّف:

- يا جماعة الخير، قبل عشرين سنة وبالضبط أيّام الثّمانينات كانت في جميع أحياء البلد بيوت يتبدّل سكّانها على الدوام؛ بحيث كلّ شهرين أو أكثر يغادر الساكنون ويسكن محلّهم في تلك البيوت أناس جدد، وغالبًا ما يكونون من العزّاب، وكان يُشاع على تلك البيوت أنّها لرجل مهاجر خارج البلد، وأنّها بيوت مستأجرة، ولكن هذه البيوت كانت مصدر الشّرّ في الأحياء...

يتغامز الرجال بينهم، مع تذمّرٍ واضحٍ من البعض. وسخرية بائنة على ملامح بعضهم الآخر... إذ قال أحدهم:

- الظّاهر أبو مؤمّل بدأ يخرّف؛ فما بالنا والثّمانينات.

عقّب الآخر بقوله...:

- هل سمعت الشيخ شهاب أجبرني على الضحك، وأنا في حزن شديد؛ ولكن كلامه لا يصبر على سامعه أحد من دون أن يضحك .

لأنّ سمع الشيخ شهاب ثقيل استمرّ بحديثه عن الذّكريات التي رآها أغلب الحاضرين لا صلة لها بالموضوع:

- وقد كنت شاهدًا على كشف أسرار البيت الذي كان في حيّنا السابق قبل أن أنتقلَ إلى حيّنا هذا حينما هرب ساكنوه قبل أيّام من سقوط النظام السابق عام ٢٠٠٣م؛ إذ كنت من ضمن الداخلين على ذلك البيت، وجدنا هُويّات بعض شباب منطقتنا المختفين، وبعض التقارير عن مجموعة من الرجال والعوائل الّذين أُعدِمُوا أو سُجِنُوا من منطقتنا، أو كانوا على وشك ذلك، أتعلمون ماذا كانت تلك البيوت؟ إنّها بيوت أمن ومخابرات تتجسّس على أفعالنا وأقوالنا، وتنقلها بخسّة إلى منظومة الإجرام الموسومة عبثًا بدوائر الأمن في حين كانت دوائر رعب وتخويف واستهداف بخس؛ لتكمل دور تصفية الأنقياء والنّظيفين من شعبنا المظلوم بعد تلويثهم بتقاريرهم الخسيسة العمياء...

شعر الرجال المتذمّرون والمستهزؤن في هذه اللّحظة أنّهم كانوا على خطأ في تقييم كلام الشيخ شهاب؛ فهو يتحدّث في صميم ما هم فيه؛ فهو تأريخ ممتدّ لسلالة طارق الخسيسة؛ استمرّ الشيخ شهاب بحديثه:

- أتعلمون يا جماعة الخير، إلى ماذا أقصد من كلامي؟

يبادره الحاج الصفّار بالسّؤال وبصوت عالٍ كي يسمعهُ:

- إلامَ ترمي يا شيخنا؟ .

- أرمي إلى أنّ المجرمين من أزلام النظام السابق لن يتوانَوا عن إلحاق الأذى بنا؛ لأكثرَ من سبب، مرّة لأنّهم يروننا سالبين لأمجادهم المزعومة، ومرّةً لأنّهم يروننا مجرمين؛ لأنّ السّارق يجد المسروق ظالمه إذا أمسكه، وحاول تسليمه للعدالة ..

- صحيح يا شيخ...

- لذلك فحينما كُشفت بيوتهم في الثّمانينات والتّسعينات عملوا على تغيير طريق اختراقهم لمجتمعاتنا التي يرونها موصدة مغلقة عليهم، وذلك بزجّ جواسيسهم وأذرعهم القبيحة بين سكّان أحيائنا الطّيبين من عملاءهم المنغمسين من أمثال بيت الحردان ولقيطه طارق...

- نعم صحيح جدًّا...

- بقي سؤال واحد أوجّهه إليكم جميعًا يا حاج الصفّار ويا بقيّة وجوه الحي...

- وما هو يا شيخ؟ .

- هل تظنّون أنّ حيّنا فيه؛ من العملاء الحردان ولقيطه فحسب، أم هناك سواهم ممّن ما زالوا مغلَّفين بغلاف يحجبنهم عنّا؟ .

تأخذ الحضور لحظة تأمل موشومة بالقلق...

- أنا أجيبكم يا جماعة الخير،لا ليس الحردان ولقيطه فحسب؛ فنحن بطيبتنا نحتوي الغرباء، ونحتضنهم ولا نعمل على فحص دوافعهم؛ فلو نظرتم إلى تجمّعنا اليوم؟ وتأكّدتم مَنْ غاب عنه اليوم؟ لوجدتم إجابة واضحة وصريحة عن تساؤلي .

بالتّوِّ؛ يبادر المعلّم فهمي:

- نعم يا شيخ... كيف لم نلتفت إلى غياب إبراهيم الخبّاز؟ .

يتلفّت الحضور حول بعضهم ليتفقّدوا مَن غاب عن المجلس؛ ليستكشفوا بقية السّلالة الخسيسة على شاكلة الحردان ولقيطه...

الفصل التاسع

(١)

يكسر الضّجّة التي ثارت في المجلس بحثًا عن الغائبين عنه صوتُ عويل الخبّاز؛ وهو مكتوف بين يدَي سليم الذي غاب لِليلتين عن الحي بعد أن فجع الحاجة أم محمد بلا وعي...

يتجمهر الشباب حول الخبّاز؛ ليتبرّكوا برفسه على خساسته، لكن الحاج الصفّار ينهرهم كي لا يموتَ بين أقدامهم، وبعد حِين استجابوا إلى نهْر الصفّار، واستدرجوه إلى المجلس:

جلس الخبّاز جِلْسة الذّليل بين أنظار رجال الحي؛ وهو منكسر العين، مطأطِئ الرّأس، وكأنّه وُلِدَ بلا كرامة الرجال...

بعد هُنيئة من الوجوم، ولفظ البُصاق من أفواه الرجال على ناصيته؛ يبادره الحاج الصفّار بالحديث:

- بُني سليم ! سلمت يمينك، ولكن أين عثرت على هذا الخسيس؟ .

يحاول سليم أن يستجمع قواه ويسيطر على أنفاسه اللاهثة، فقوة

الخبّاز كقوة عجلين هائجين، وبالكاد سيطر عليه سليم... وبعد مدّة وجيزة يستعيد سليم هدوءه، ويجيب الحاج الصفار...:

- يا حاج ! قبل ليلتين كنت من دون وعي... بخاصّة بعد أن استكشفت أنّ اللقيط ابن الحردان كان وراء اختفاء صديقي وأخي محمد... انفجر حزني على والدي من جديد فسكبت أوجاعي في بيت أم محمد... وحين التفت إلى فعلتي غير الواعية، خجلت من أهالي الحي وبخاصة أم محمد فسحت في أطراف المدينة حتى وجدت نفسي على ضفاف الوادي...

- أعانك الله يا ولدي.. وماذا بعد؟...

- بعد وقت ليس بالطويل وجدت سارة تلحق بي أملًا في معرفة سرّ غياب محمد، فكما تعلمون نحن كإخوة... ولمّا وجدتها على مقربة مني أخذتها كي نعود إلى الحي...؛ فليس من الحميد أن نبقى في العراء لوحدنا وفي الأثناء ونحن في طريق العودة، وجدت ظلًّا يتخفّى كسوادةٍ بين ثغرات الوادي... طلبت من سارة المغادرة على عجل من دون أن أربكها بظنوني المرعبة أنّ وراء ذلك الظلّ المتخفّي سرًّا قاتلًا...

- أها... وماذا بعد؟...

- غادرت سارة باتجاه المدينة، وأنا تعقّبت الظلّ المتخفّي، وما زاد ريبتي أنّ الظلّ يبالغ بالتخفّي عن الأنظار... ولما اقتربت منه بطريقة خفيّة... اتضحت ملامح الظلّ عن بُعد؛ وكأنها ملامح إبراهيم الخبّاز الذي كان شاهدًا للحردان على التبرّي من طارق...

- أحسنت يا سليم ! وماذا فعلت بعدها؟...

- هاجمته، وحاول التملّص مني لكني أطبقت عليه كصقر على فريسة، وها هو بين أيديكم الكريمة...

يلتفت الحاج الصفار إلى الخبّاز... ينظر إليه نظرة غضب واستخفاف...:

- أعتقد أنّ غيابك المفاجئ عن مجلسنا... وتخفّيك في الوادي دليل على أنّك من زمرة الخسيسين طارق والحردان ومن لفّ لفّهما؟...

يحار الخبّاز بالإجابة؛ فيفضّل الصمت... ولمّا لم يجب على سؤال الصفّار الاستنكاري، بادره الصفّار نفسه بسؤال محرج آخر...:

- ربّما اسمك ليس إبراهيم كما أوهمتنا به، تتكلّم أمْ نجعلك تتكلّم بأيادي الشباب الغيارى؟ .

ينظر الخبّاز بنظرة تختزن اللّؤم إلى الحاج؛ يُشَمُّ منها اختلاط مشاعر الخساسة والتّشفّي والخوف... لحظات ويجيب الحاج:

- أعطِني الأمان وأنا أجيب .

يجيبه الصفّار:

- لا أمانَ لَمن سلب أماننا؛ فستتكلّم شئت أم أبيت، وعلى قدر صدقك الذي لا تعرفه، ستكون رحمة رجال الحي بك، وإن كنتَ لا تستحقّها.

- إذًا لنْ أتكلّمَ .

- ستتكلّم وإلا أطلق أيدي الشباب...

- لن تستفيدوا من موتي...

- بل نستفيد من عذابك...

يُصبح الخبّاز في خانق من ردود الحاج الصفّار التي أخذت مأخذها من نفسه وكادت تجبره على الاعتراف، يلتفت إليه الشيخ شهاب ويبادره بالقول:

- يا إبراهيم، أنت كنت بيننا كأحدنا؛ فافعل شيئًا يجعلنا نغفر لك بعض خطاياك، أليس لنا في رقبتك أفضال وأفعال خيّرة تحرّك فيك ما بقي من نخوة، إن كنتَ تعرف ما معنى النخوة؟!.

يصمت المجلس قليلًا، ثمّ يكسر الخبّاز صمته، وصمت المجلس بضحكة هستيريّة ظنَّ الحاضرون أنّه جُنَّ:

- اسمعوا أيّها الرجال أنا لست إبراهيم، والحردان ليس الحردان، وطارق ليس اسمه كذلك... فنحن خليّة مجنّدة من تنظيم حزب البعث/ تنظيم شمال بغداد؛ جلسنا بينكم، ونعلم أنّكم غافلون إن لم تكونوا أغبياء...

يرفسه أحد الرجال، لكن الحاج الصفّار ينهره:

- يا رجل هو أسيرنا فلا تؤذِهِ، وبعد إتمام كلامه سينال ما يستحقّ...

التفت الصفّار إلى الخبّاز وخاطبه:

- يا مَن لا نعرف اسمه! تحدّثْ بأدب وإن كنتَ لا تعرفه؛ إذ لا أضمن لك سلامةً إن استفززتَ الرجال...

يتنهّد الخبّاز، ويصمت قليلًا، ثمّ يستأنف حديثه:

- كلّ ما حدث في الحي من سوء كان مخطَّطًا له، والقادم أكثر شقاءً؛ فنحن الخليّة التي كُشفت، وغيرنا خلايا كثيرة نائمة، وربّما بينكم منهم ولكن لم يأتِ دورهم؛ فهل تظنّون أنّكم تسرقون مجدنا ونسكت ! .

- أيّ مجدٍ أيّها الخسيس؟ .
- السلطة والجاه والمال و و و و .
- هذه دنيا زائلة؟ .
- زائلة في نظركم أما نحن فنعمّرها للخلود، ألم تسمعوا شعارنا:

أمة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة...

- بلا شعارات وأتمْ، مَن أنتم وماذا تريدون؟ .
- نحن خلايا تشكّلت في التسعينات في محافظات شمال بغداد تحت إمرة القيادة من تنظيمات الفروع في القيادة القطريّة، نحن تدرّبنا على أيدي السلفيين من الوهابيّة عقائديًّا، وتحت أيدي الرّفاق البعثيين وطنيًّا، وعلى أيدي أمهر المدرّبين الغربيّين من الأمريكان وحلفائنا؛ تعلّمنا الخطط العسكريّة في الأحياء التي تسمّونها بقتال الشّوارع، وكذلك على تكوين العبوات واستعمال الأسلحة الخفيفة...

وكنّا منذ ذلك الحين موزّعين على الأحياء ومؤسّساتها الدينيّة والاجتماعيّة؛ فمنّا مَن صار إمام جماعة في المساجد، ومنّا من صار شحّاذًا في الشّوارع، ومنّا مَن صار معلّمًا في المدارس، ومنّا من صار

مهنيًّا مثلي؛ خبّازًا في الأحياء؛ مهمّتنا تفخيخ العقول تُجاهكم وتُجاه منهجكم؛ فمع منهجكم لا يمكن لسيرنا أن يتحرّك بانسيابيّة ويسر وسرور، نعمل على تجميع المعلومات عنكم، نحلّل شخصيّاتكم، نصنع الفتن بينكم، نصفّي مَن نصفّي، نقتل مَن نقتل، ونكسب مَن نكسب...

قتل الضّباط والشرطة والجيش على أيدينا، تفجير المساجد والحسينيات بفعلنا، خطف الأطفال، وقتل الشباب والتّمثيل بهم على أيدينا، كلّ ما يرعبكم ويدخل الهلع في قلوبكم وبيوتكم كان من تصميمنا... فمهمتنا باختصار أن نجعل سيرتكم كسيرة الجمر في المناقل...

- أخبرْنا عن مصير محمد والشباب الّذين اختفوا من الأحياء المجاورة؟.

- هذه مهمّة ليست من جدول أعمالي... ولكن كلّ ما أعرفه: أنّ شبابكم ذهبوا مع الرّيح...

يقولها الخبّاز وتتعالى معه ضحكة هستيريّة... أخذت تتلاشى مع تجمّع الشباب حوله تدريجيًّا...

(٢)

في اليوم الثاني اختصّ المعلّم فهمي الحاج الصفّار بمجلسه، وطلب منه أن يكونا لوحديهما، ففعل، وحينها بدأ المعلّم حديثه:

- يا حاج وضع البلد مزرٍ، والقوّات الأمنيّة ليست على ما يرام بفعل الإرهاب والاحتلال، ولكن هذا لا يعني أن نقومَ مقام القضاء ! .

- فما في بالك يا أستاذ؟ .

- ببالي أن نوثّق اعترافات الخسيس الخبّاز، وبعد أن ننتهيَ منها، نسلّم نسخة منها إلى القضاء ليجري مجراه الطبيعي، وفي الوقت نفسه نعرف الحقائق من أجل أن نتوقّى ما بقي منها مستقبلًا، ونعرف ما مضى منها في ما سبق.

- كلام حكيم...

- ولكن هذا يقتضي أن توصيَ الشباب ألّا يقسوَ على الرجل؛ فأنا قلبي يغلي منه؛ ولكن أنت قلتها سابقًا: هو أسيرنا .

- نعم! لك ذلك، ولكن مَن برأيك ينهض بمهمّة التّحقيق والتّوثيق؟ .

- التّحقيق ينهض به كلّ من له قدرة على الاستجواب، ومبدئيًّا أقترحُ أن تكونَ أنت وأنا والشيخ شهاب، أما التوثيق فنعتمد على سليم فهو كما تعلم مهندس...

- اقتراح موفّق، وعلى بركة الله...

ينادي الحاج الصفّار على الشباب الّذين بباب المجلس ليجلبوا الخبّاز، وقبلها ينادون على الشيخ شهاب أبو مؤمّل، ومهندس سليم...

وما إن وصل الشيخ والمهندس حتى قصّ عليهم الصفّار مقترحَ المعلّم؛ فأيّد الجميع وشرعوا بالمهمّة الموجعة التي لا بدّ منها .

جلس الخبّاز جِلسة الذليل بين يدَي مجموعة التّحقيق والتّوثيق الشعبية، وبدأ المعلّم بالسّؤال:

- حدّثنا عن ماضيكم؟

سكت الخبّاز بعض الوقت وكأنه يستجمع ذاكرته؛ فهو لم يكن يتوقّع أن يأخذَ الحوار مسارًا تأريخيًّا؛ إذ كان مستعدًّا لإنكار معرفته بخطف محمد والشباب الباقين، لكن الحضور أصرّوا عليه

بالاعتراف، فشرع بالحديث:

- لا أخفيكم كانت قوّة الجيش الإيرانيّ غير متوقّعة؛ فأغلب دول الجوار والدّول الغربيّة الحليفة كانت تظنّ أنّ القضاء على الترسانة العسكريّة الإيرانيّة سهلة ومتاحة، بحكم هشاشة حكمهم الجديد لحداثة عمره؛ لكننا فوجئنا بعقيدة المقاتل آنذاك؛ ممّا جعلنا في حرج عسكريّ ولوجستيّ، ولم يقف الأمر على هذه الحراجة، بل كانت الدّول الدّافعة تعمل على استنزاف قوانا؛ ممّا دفع بنا إلى التّهوّر ودخول الكويت الجارة، وحصل ما حصل من انهيار ودمار في المنظومة العسكريّة والاقتصادية، وكان نظامنا قاب قوسين أو أدنى من الانهيار التام...

- وكيف صمدتم؟

- لاحظت الدّول الغربيّة الاستعماريّة أنّ استبدال نظام الحكم في العراق لم يتهيّأ بعدُ، ولا سيّما أنّ إيران ما زالت تتعافى؛ فقرّروا أن يكونَ العراق البلد المريض الذي يكون منطقة هلاميّة للسّيطرة على الشّرق الأوسط به...

- وكيف عملتم حينها؟

- كانت مهمّتنا الأساسيّة في التّسعينات أن نُشغِل

الشّعب بما لا يمكّنه من النّهوض؛ لأنّ نهوض الشّعب مع ضعف الدولة وأجهزتها الحكوميّة يعني انهيار النظام وزوالنا...

- فماذا فعلتم؟

- جلعنا الشّعب بين جدران القطيعة؛ بحيث لا يسمع إلا الصّوت الذي نريده أن يسمعَه، ولا يرى إلا المَشَاهد التي نريده أن يشاهدَها، ولا يستطعم إلا الأذواق التي نريده أن يستطعمَها، بمعنى أنّنا عملنا له غسيلًا جماعيًّا للدّماغ، وصنعنا وعيًا جمعيًّا على وفق ما نريده بحيث نحرّكه حيثما نشاء.

يتنهّد الحاج الصفّار، ويبادره بالقول:

- قاتلكم الله! كيف لكم أن تكونوا بهذه الوحشيّة؟!.

يجيبه المعلّم فهمي:

- هم متمرّسون على المجازر الجماعيّة، كما هم متمرّسون على التّصفيات الفرديّة... فهم تربية مَنْ؟ أخبرنا قبل قليل بأنّهم تدرّبوا عقائديًا على أيدي التكفيريين، ووطنيًا على أيدي البعثيين، وعسكريًا على أيدي الأمريكان وحلفائهم، فكائنات و لا أقول بشرًا تربّوا على هكذا أسياد كيف يمكن أن تكون هيآتهم وأخلاقياتهم وسلوكياتهم؟ من الطبيعيّ أن يكونوا آلات دمار وأدوات تقتيل

وتشريد...

يتداخل الشيخ شهاب في الحوار ويوجّه سؤاله إلى الخبّاز...:

- يا خبّاز ! ما اسمك القبيح كفعلك؟ .

ينظر الخبّاز بحقد على الشيخ، ويستفزّه بقوله:

- يا شايب! اسمي لا يفرحك فهو قريب ممّا تبغض؛ فاسمي سطّام .

- قبّحك الله كاسمك... فهو كاسم صدام، ولا غرابة فكلّكم من شجرة خبيثة واحدة...

يعيد المعلّم فهمي الحوار إلى مجراه:

- فكيف استطعتم أن تحقّقوا القطيعة بين الشّعب والعالم؟ .

- سيطرنا على النّوافذ الإعلاميّة والفنّيّة؛ المرئيّة والمسموعة والمكتوبة منها، وجعلنا الأقلام مأجورة بفعل الحاجة؛ فالشّعب كان تحت طائلة الحصار الاقتصادي والجميع في عوز: الشّاعر... والفنّان... والكاتب،... وكلّ مثقّف حينها...

- هل نفهم أنّ الحصار كان تمثيلية من صنع أفعالكم القذرة؟ .

- لا أعلم، ولكن ما أعلمه أنّنا استثمرنا الحصار الاقتصادي بما فيه من عوز من أجل القضية...

- أيّة قضية أيها العميل؟!...

- قضية تمتين سيطرة الحزب على الشعب؛ كي نقوده إلى المجد...

- عن أي مجد تتحدّث، مجد هزائمكم مع إيران، أم مع هروبكم تحت نيران المحتلّين عند فراركم من الكويت، أم مع الحصار، أم مع ماذا؟ فسجلّكم مليء بالهزائم والانكسارات... ألا تستحون؟!! .. هل نسيت كيف استسلم قائدكم الضرورة كالجرذ... بحيث نكّس رؤوسنا أمام العالم... كان بالونة فارغة...

- ماذا تريد منه أن يفعل أمام ترسانة كأمريكا وحلفائها؟ .

- إن لم يكن قادرًا على المواجهة فلِمَ تصدّى، ورّط حاله وورّط شعبًا برمته !... على كلّ حال نرجع إلى صلب الموضوع؛ لكنكم لم تستأجروا الجميع؛ فهناك مثقّفون أحرار...

- نعم! لكنهم لم يصمدوا فهربوا إلى الخارج...

- المهمّ أنّهم لم يتلوّثوا بملوثّاتكم، وعلى الرغم من

ذلك بقي الكثير منهم صامدًا في العراق .

- نعم! بقوا في العراق، ولكن مسحوقون مدمّرون... وماذا يفعل المسحوق والمعوز، فهو منكسر داخليًا ومنشغل للبحث عن لقمة العيش عمليًا، فمن أين له أن يتحرّك ليغيّر الوضع...

- أتمْ يا سطام ! .

- فيما يتعلّق بتحييد الرجال ولاسيما المثقفين فقد تمّ بما سبق، بقي أن نحيّد وسائل التواصل كذلك، وحينها لم يكن سوى التلفزيون، وقد كان تحت سيطرتنا وأوقات البثّ محدودة، وساعات التّرفيه معدودة، وزمان التّغذية المقصودة ممدودة، يضاف إلى ذلك فقد منعنا الفضائيّات، وكان التلفزيون المحلّي هو ما نبثّه نحن فقط .

- وبعدُ؟ هل هذا كلّ شيء؟...

- لا بل مخططنا أوسع ممّا تتصوّر، فنحن نريد إدارة أمة عريقة مثل العراق، فكيف يمكن إدارتها بمخطط بسيط، لذا عملنا على تحييدنا عن العالم، بحيث كان الانترنت ممنوعًا، وحينما احتجنا أن نراقبَ الّذين خرجوا خارج العراق فتحنا الانترنت على نحو ضيّق؛ بحيث كان تحت مراقبتنا كي نتتبّعَ الخارجين، ونتجسّسَ على الداخلين؛ أيْ: إنّ الجميع صار تحت أسماعنا وأنظارنا، كي نمنعَ

الخيانة والخروج على القانون .

- وهل تسمّون هذه الأفعال وطنيّة، وما يؤدّيه الوطنيّون خيانةً؟؟! .

- هذه مشكلتكم أيّها المعلّم التّقليديّ، تعيشون بالمبادئ الفارغة، في حين أنّ الواقع يقوم على مبدأ: الغاية تبرّر الوسيلة .

- على كلّ حال يا سطام! لكلّ منّا مبادئه التي يؤمن بها، إذ لا يمكن أن يلتقي الشياطين والملائكة في النوايا والغايات والأهداف، فطريقهما مفترق ولا تلاقي بينهما بتاتًا، وهل فعلتم شيئًا آخرَ؛ كي تعمّقوا القطيعة بين العالم وشعبنا المظلوم؟ .

- نعم! فأهمّ خطوة ركّزنا فيها هي منع السّفر بطريقة مبرّرة؟ .

- وكيف ذاك؟.

- أفراد شعبنا يجهلون تقاليد السفر في العالم، ولا يعلمون أنّ تأشيرة السّفر تمنح للمسافر من الدولة التي تريد السّفر إليها؛ لكننا جعلناها تأشيرة مزدوجة.

- كيف ذلك؟ .

- تأشيرة البلد المسافر إليه معلومة وطبيعيّة؛ ولكننا أضفنا إليها تأشيرة العراق على مواطنيه، وهي فكرة عبقريّة استلهمناها من القيادة الحكيمة.

تصدر ضحكة عالية من الشيخ والحاج والمعلم؛ مستهزئين بضحالة المُغرَّر بهم من أزلام النظام السابق، ويبادره المعلّم فهمي بالقول:

- وكيف تكون الفكرة عبقريّة؛ وهي قيد على مواطنيكم، بربِّك! أ هذه حكمة أم خساسة؟ .

- يا معلّم، هي حكمة حين تكون إجراءً لتحقيق أهدافك؛ فنحن نريد المحافظة على سلامة أفكار مواطنينا من ملوّثات أفكار الدّول الأخرى.

- قاتلكم الله! تتهمّون الشّعوب بالملوّثين، وأنتم أكبر ملوّثات البشريّة منذ الخلق الأوّل!.

في هذه الأثناء يُرفع من مسجد الحي أذان الظهر بصوت جواد المؤذن ذي الصوت الشجي... فيطلب الحاج الصفّار من مجالسيه أن يصلّوا ويتغدّوا، ويستأنفوا الحوار...

الفصل العاشر

(١)

على مائدة الغداء كان الجلساء في مجلس الحاج الصفّار في صمت طويل، بحيث لا تسمع منهم سوى صوت الملاعق؛ وهي تلامس صحون الطعام...

أربعة من الرجال جالسون، ولكن النّفس واحد؛ إذ لا تستشعر بوجود أربعة، هنا أراد الشيخ شهاب تغيير جوّ الصّمت؛ فبادر المعلّم فهمي بالسّؤال:

- أستاذ فهمي !
- نعم شيخ!...
- هل يمكن أن تعرّفَني بسبب هجرك الزّواج؛ فأنت رجل واعٍ ومثقّف ومتديّن؛ فلِمَ تركتَ سُنّة الزّواج؛ وهي من خير السّنن التي حثّ النّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليها؟ .

يضع المعلّم فهمي الملعقة من يده على المائدة، ويتنهّد تنهيدة كبيرة، ثمّ يتأمل مع رقرقة خفيفة في عينه... هنا يستشعر الشيخ أنّه

ربّما آذى المعلّم؛ فيبادره بالقول:

- أستاذ! أعتذرُ إن كنت آذيتك .

- لا يا شيخ! ولكنك هيّجت في داخلي ألمًا كنت نسيته .

- وما هو؟ .

- يا شيخ من ضمن الخطط الخسيسة التي عمل عليها النظام البائد من طريق أعوانه من مثل سطام ورفيقيه الحردان وطارق؛ هي تكسير معنويّات الشباب وتحطيم طموحاتهم .

- وكيف ذاك؟ ولكن قبل أن تجيب عليك أن تُمسِك ملعقتك وتأكل؛ كي نستمرَّ بالأكل معًا...

يبتسم المعلّم من حديث الشيخ شهاب ليشعره بصلابته... يتظاهر باستعادة قوّته... يبادر بمسك الملعقة... يستأنف الأكل والحديث معًا...:

- يا شيخ عمل النظام البائد على تجويع الشّعب، ولكن في الوقت نفسه استقدم طلبة الدّول الأخرى التي فيها تأييد حكوميّ وشعبي لسياسته، ومنحهم المنح الماليّة التي جعلت منهم في أريحيّة على حساب عَوَز شباب البلد...

- أها... وهل كان الطلبة الموفدون جميعًا مكفولي الإقامة؟ .

- ليس الإقامة فحسب يا شيخ، بل كانت تُصرف لهم رواتب أعلى من رواتب أساتذتهم...

- أيُعقل !!! وماذا يُراد من ذلك؟ .

- أدّى ذلك أن فَقَدَ الشباب العراقيّ القدرة على خطبة من يُحبّ، ورغبة أغلب البنات بالطّلبة الوافدين كانت عارمة؛ كي يهربوا من جحيم وضع البلد والجوع والعوز فيه.... وكم كانت الفتيات ضحايا ولا سيّما أنّهنّ لا يعينَ خطورة ما يفعلْنَ .

- ماذا تقصد؟ .

- الخطورة التي أقصدها أن تتزوّج البنت شابًّا لا تعلم من تقاليد بلده، وإمكانات أسرته إلا ما رأته في العراق بفعل دعم النظام البائد لهم... فما رأته صورة غير حقيقية لواقع الوافدين، فما نراهم أثرياء فبسبب الدعم المالي العراقيّ، وما تراه شابًا لطيفًا فبسبب وضعه ضيفًا يريد أن يعكس أحسن ما لديه أمام البلد الذي ضيّفه...

- وماذا يمكن أن يحصلَ؟ .

- لقد حصل الكثير؛ فبعض البنات اللّواتي تزوجْنَ

وقعْنَ في فخّ الوهم، بحيث اكتشفنَ بعد السّفر أنّ وضع من تزوّجنَ بهم أسوأ من وضعنا؛ فخرجت من جهنّمَ فوقعت في ويل...

- أها...

- نعم يا شيخ، وليس هذا فحسب، بل وجدت بعضهنَّ أنّ تقاليد البلدان الأخرى أتعس من تقاليد بلدنا في بعض المناطق؛ وهو فعل شنيع أيضًا؛ فكُنَّ ضحايا؛ إذ هربْنَ من ضيم إلى ما هو أشنع .

يتدخّل الحاج الصفّار هنا بقوله:

- وما شأن كلّ ما ذكرت بسؤال الشيخ لك؟ .

- يا حاج ما ذكرته في صميم ما عنيت .

- نوّرنا يا أستاذ... كيف؟ .

- لقد خسرتُ مَن أحببتُ في مرحلة الدّراسة بسبب طالب وافد، عرض عليها الزّواج وأغراها بالمال الذي أغدقه عليه أزلام النظام البائد.

- أها...

- لكن المسكينة وقعت في فخّ من أفخاخ ما ذكرت .

- وكيف؟ .

- وجدت واقع الطّالب الثّريّ في العراق أكثر عوزًا مني في بلده؛ وقد كانت بيئته بدائيّة بحيث أصيبت بداء قد انقرض في العراق.

- وما هو الداء؟ .

- داء الطّاعون .

- الطّاعون !!! باللهِّ عليك...

- نعم يا شيخ، وقد خسرتني هي وأنا خسرتها، بسبب فعل النظام السابق الذي بدّد أحلامنا، وكسّر طموحاتِنا، وقتل آمالنا، وزاد آلامنا...

(٢)

مع شرب الشاي كان الجلساء في دوّامة كدوّامة زوبعة الشاي؛ وهو يُخاط بالملعقة الصغيرة، وقد تساءل الشيخ شهاب:

- يا جماعة الخير، ماذا فعل النظام السابق بنا ! .

فأجابه الحاج الصفّار:

- وكذلك ما فعله بنفسه وبمريديه...

يضحك الجميع ضحكة الموجوع، فالمقام ليس مقام فرحٍ أو استرخاء... الكلّ كان مشدودًا ممّا يجري الآن، وممّا جرى في الأمس، وربما يأتي غد أكثر بشاعة ممّا حصل ويحصل... يهدأ الجمع من ضحكتهم الموجوعة كدموع الحزن فيبادر المعلم فهمي بقوله متحسِّرًا...:

- هذا ما جناه علينا وعلى نفسه... هكذا هم المجانين...

يلتفت الحاج الصفّار إلى جلسائه، ويبادرهم بالسّؤال:

- هل نستمرّ مع الخسيس سطام أم اكتفيتم اليوم؟ .

يجيبه المعلّم فهمي:

- بل نستمرّ؛ فمرورة التّذكّر، كمرورة القهوة، تلسع؛ لكنها تنبّه، فبنا حاجةٌ إلى أن نتنبّه على القادم، بما غفلنا عنه في الماضي.

هنيهة ويستقدم الشباب سطام إلى مجلس الحاج الصفّار، يلتفت إليه الشيخ شهاب، ويفتح معه الحوار مجدّدًا:

- باللهّ عليك! إن كنت تؤمن بربّ؟ .

- ومَن قال لك إنّنا كفّار؟ .

- الله يزكّي الأنفس وليس أنا يا سطّام! ولكن قل لي بربّك الذي تعبده هل ما تحدّثت عنه سابقًا من فعل المسلمين؟ أنا أكفيك المؤنة: لا هي فعل الزناديق والمنافقين والأفّاقين، ومن هنا أسألك وأريد جوابًا على وقاحتك المعهودة من الصراحة: ماذا فعلتم بالدّين والمتدينين؟ .

يتأمل سطام قليلًا بالسّؤال، ثمّ يهدر بسمومه:

- الدّين هو العقبة الكبرى التي ما استطاعت قياداتنا بجميع صنوفها أن تتجاوزه؛ فكلّ محاولاتنا باءت بخروقات، وواقعًا كنّا نحار في قوّة أتباعه .

- وماذا فعلتم؟ .

- وضعنا أمامنا مجموعة أوّليّات لضعضعته بعد أن

آمنّا باستحالة محوه .

- وما هي؟ .

- عملنا على ضعضعة علاقة المتديّن بشعائره؛ ولا سيّما الشّعائر الحسينية؛ إذ منعنا الزّيارة الأربعينيّة، وأغلقنا المواكب، وشرّعنا قانونًا يعاقب على عقد المجالس والمنابر الحسينية .

- وبِمَ ضرّتكم الشّعائر الحسينية ومواكبها ومجالسها ومنابرها؟ .

- على العكس هي مدارس مستمرّة تغذّي المتديّن جيلًا بعد جيل بالمبادئ التي تخيفنا.

- مثل ماذا؟ .

- مثل محاربة التّسلّط والاستبداد، ومقارعة الظّلم والظّالمين، وعدم السّكوت على الضّيم والمهانة... ألستم ترددون قول: هيهات منّا الذّلّة...

تنطلق عبارة واحدة من جلساء مجلس الحاج الصفّار:

- السلام عليك يا أبا عبد الله... نعم هي مقولة الحسين عليه السلام .

يستأنف المعلّم فهمي الحوار بقوله:

- وماذا فعلتم كذلك؟ .

- حاولنا زراعة الجواسيس بين صفوف طلبة العلوم الدينيّة في حوزاتكم الدينيّة ولا سيّما في النّجف بعد أن أغلقناها في سامرّاء وبغداد وكربلاء .

- وماذا يفيدكم ذلك؟ .

- يفيدنا في أن نضعضعَ الصّلة بين الشّعب والحوزة من جهة، وبين الطّلبة ومرجعيّتهم من جهة، وبين الطّلبة أنفسهم من جهة أخرى؛ فمصدر قوّتكم الثانية هي ديمومة التّعلّم المستمرّ؛ فالشّعائر مدرسة شعبية، أما الحوزة فمدرسة علميّة، وما أن تضعضعها تتهلهل طائفتكم .

- وهل نجحتم في ذلك؟ .

- نجحنا كثيرًا وفشلنا أخيرًا .

- وكيف هذا الأمر، هل هي أُحجيّة؟ .

- نعم نجحنا في رصد تحرّكات العلماء، ومعرفة المعلومات الكافية عن طلبتهم، وشخّصنا البيوتات المؤثّرة .

- وماذا فعلتم بعد ذلك؟ .

- عملنا على تصفية البيوتات المؤثّرة بالحبس، والإعدام، والتهجير .

- وماذا بعدُ؟ .

- وخلقنا فتنة بين صفوف الطّلبة من جهة، وبين الطّلبة وعلمائهم من جهة أخرى؛ إذ قتلنا بعض العلماء واتّهمنا طلبة علماء آخرين، من باب أنّ التّصفية الجسديّة يفعلها الطّلبة من أجل الثّأر لعلمائهم من منافسة العلماء الآخرين... لكننا نجحنا بحدود.

- ولِمَ نجحتم بحدود؟ .

- لأنّ صلابة العلاقة بين صفوف الطّلبة وعلمائهم كانت أقوى ممّا تصوّرنا؛ بحيث عمل حكماء الحوزة على إطفاء نائرة الفتنة بالنّصح والإرشاد؛ وقد ساعدهم على ذلك طاعة طلبتهم لهم؛ إذ وجدنا أنّهم منشّؤون على قاعدة: الامتثال خير من الأدب .

الفصل الحادي عشر

(١)

مع أوّل المساء؛ وقد حضر الرجال إلى مجلس الحاج علي الصفّار، لم يختلِ الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم) بل بقوا مع الحضور كي لا يشعروهم بشيء.

ومع رنّات ملاعق الشاي وهي تخوط، خاض الجلساء في حديث ساعتهم؛ وهو وضع البلد ومخطّطات المندسّين؛ إذ أربك ثقتهم أن نبعَ من بينهم جواسيس من قبيل الحردان ولقيطه وحليفهم الخبّاز... إذ لم يعرفوا إلى الآن اسم الخبّاز الحقيقي، أو ما ادّعاه صاحبه أنّه حقيقي، فهم مزيّفون كالظلال لا واقع لهم ولا أثر سوى الخراب...

حاول الحاج علي الصفّار استعادة ثقتهم ببعضهم؛ مستفيدًا ممّا كشفه سطام - الجاسوس - في حديث النّهار لهم، من مخطّطات النظام البائد وأزلامه الباقين بعد انتهاء.

فبدأ الصفّار بالحديث إلى جلسائه:

- يا جماعة الخير! إنّ الجواسيس ليسوا أشباحًا، بل

همّ بشر مثلنا، ولو دقّقنا جيّدًا لاكتشفناهم.

استعلم أحد الجلساء مِن الحاج بقوله:

- وضّحْ يا حاج أكثر؛ فبنا حاجة إلى إرشاداتك.

- يا عزيزي، إنّ وظيفة الجواسيس وأزلام النظام السابق هي زرع الفتن، ودقّ الأسافين بين الجماعات؛ لتكونَ المجتمعات عبارة عن جماعات متناحرة... متناهرة...

- نعم يا حاج أحسنت...

يتداخل المعلم فهمي بالحوار:

- وأزيد على كلام الحاج الصفّار أنّنا ينبغي أن نفوّت الفرصة على المؤامرات الدّاخليّة وأذرعها في الدّاخل التي تعمل على هدم ثلاثة أركان في حياة المجتمع، وبهدّها ينهدّ المجتمع.

فسأله أحد الجلساء:

- وما هي يا أستاذ؟ .

فأجابه المعلّم فهمي:

- القضاء والتعليم والأمن .

- وكيف ذلك؟ .

- سأذكّركم بما فعله النظام البائد، وعلى قاعدة التأريخ

يعيد نفسه؛ فالشّرّ هو الشّرّ، يحاول أن يعيدَ نفسه بالنّمط نفسه، ولكن بأشكال متجدّدة .

- أتمْ يا أستاذ فحديثك شائق.

- نعم يا جماعة الخير! في النظام البائد ولا سيّما في حقبة التّسعينات أيّام الحصار الاقتصادي عمل أزلامه على إفقار المعلّم، وزيادة عوز القاضي، وجعل رجال الأمن من الشرطة والجيش في فقر مدقع، وينسب حديث إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ جاء فيه: (لو كان الفقر رجلًا لقتلته)؛ بمعنى أنّ الفقر حالة شديدة الأذى لا يقوى على تحمّلها إلا النّفر القليل أو النّزر منه؛ فمن الطبيعي أن يعمدَ المعلّم إلى ترك الرّصانة قبالة المال، والقاضي إلى الارتشاء مقابل الحكم الزّور، ورجل الأمن يعمل بطريقة ملتوية من أجل كسب المال؛ هذه السّلوكيّات المنحرفة كانت ردة فعل طبيعيّة بسبب الوضع العام للبلد، وإن كانت مرفوضة، بفعل الإفقار وتعميق العوز الذي كان موجّهًا إلى هذه الرّكائز المهمّة لبناء المجتمع: وأعني المعلّم، والقاضي، و رجل الأمن، ونستفيد من هذا أنّ الجاسوس، والعميل، سيعمل على تعزيز هذه الثقافة في ذواتنا، ومن هنا يمكننا كشف أيّ مؤامرة أو متآمر بكشف نزوعه أو حثّه على تحقيق هذا الفعل تُجاه هذه الفئات .

- نعم يا أستاذ! فتحليلك صحيح، ويمكن أن يكونَ مفاتيح لكشف أبواب المتآمرين المغلقة .

يستمر الجلساء في ضيافة الحاج علي الصفّار بتجريد همومهم بالكلام... وبسعي ذكي من الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم) بإبعاد الحوار عن منطقة السؤال عن إبراهيم الخبّاز؛ كي لا يضطرّ الجلساء الأربعة إلى مجانبة الصدق في جوابهم؛ إذ قادوا الجلسة بعيدًا عن الخبّاز حتى انفضّ المجلس تمامًا...

(٢)

حينما انسحب الجلساء من مجلس الحاج علي الصفّار، بقي الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم)؛ اتّفاقًا من دون اتّفاق؛ فنظر الحاج الصفّار إلى جليسيه، وبادره الشيخ شهاب بالحديث:

- يا حاج نحن على استعداد لإكمال التحقيق مع سطام إن لم يكن لديك مانع .

- أبدًا ليس لديَّ مانع، ولكن لنسأل الموثّق، فلعلّه تعب .

يجيبهم المهندس سليم:

- أبدًا يا مشايخ فأنا رهن إشارتكم، وواقعًا أنا أستفيد كثيرًا من اعترافات الخسيس سطام لمعرفة استكشاف المستقبل، والتّحصّن من براثن المتآمرين .

فبادر الحاج الجميع بقوله:

- إذًا على بركة الله، فقم يا جناب المهندس واجلب الخسيس سطام لنكمل حوارنا .

جاء سطام يجرّ الخطى من الوهن والنّعاس، وبادرهم بقوله:

- ألا تتعبون، فأنا تعبت وما بي طاقة للحديث .

يجيبه الحاج الصفّار بلهجةٍ حادّةٍ...:

- الأمر ليس بيدك؛ فما فعلته أنت وأعوانك من النّذالة تستحقّ عليه العذاب الأعلى لا الأدنى، ولكننا نراعي فيك الذمّة...

- وهل إزعاجي ليلًا من مراعاتكم ! .

يوبّخه الشيخ شهاب على رده بقوله...:

- أقصر تذمّرك، وامدد قولك...

- لا حيلة لي إلا الاستجابة، فقولوا ماذا تريدون؟ .

يبادره المعلم فهمي بالسؤال...:

- لقد حدّثتنا عن أفاعيلكم في الماضي؛ فما مستحدثاتها في الحاضر؟ .

يتأمل سطام في هذا السّؤال المباغت؛ ولا سيّما؛ وهو في وهن ونعاس؛ فاحتاج إلى وقت كي يستجمع قواه وذاكرته؛ ليجيبَ:

- انظروا ! إنّ أهمّ فعل استحدثناه بعد عام ٢٠٠٣م هو تطوير مصادر الفتن؛ إذ ركّزنا في ستّة أطراف متقابلة .

- وما هي؟ .

- الطرفان الأوّلان حاولنا زرع الفتن بين طرفين ينبغي أن يكونا متماسكين؛ ولكننا عملنا على زرع الفتنة بينهما، وهما المضطهدون المنقسمون على أنفسهم .

- وماذا تقصد؟ .

- أقصد المضطهدين من طائفتكم؛ فمَن صمد منهم بقي في الدّاخل، ومَن استطاع أن يهربَ إلى الخارج؛ فاستقرّ في المهجر؛ سواء أكان مهجرًا عربيًا أو غير عربيّ، ومن الطبيعي أن تكونَ هناك فجوة في المستوى الثقافي والمعرفيّ بين هذين الصّنفين، بفعل تطوّر الخارج، وتراجع الدّاخل؛ فعملنا على المناهضة بينهما بحجّة مثقّفي الدّاخل، ومثقّفي الخارج، وعملنا على صبغ كلّ فئة منهما بصبغة متناقضة؛ إذ افتعلنا للدّاخل وسْمًا مستفزًّا لهم على لسان القابعين في الخارج وذلك بوصفهم: أنّهم متخلّفون، ووسمنا الخارجين على لسان الداخلين بوسم مستفزًّا أيضًا، وذلك بأنّهم متكبّرون، وهكذا تفرّعت سلسلة السّمات المتناقضة بينهما على لسان أحدهما باتّجاه

الآخر.

- وماذا أفدتم من هذا؟ .

- أفدنا بمنع استفادة الدّاخل من خبرات الخارج؛ إذ حصل المهاجرون على معارفَ لم تكن متاحة لمن بقوا في الدّاخل، خصوصًا الذي حضوا بمقاعد دراسية في جامعات علميّة رصينة، فاستحصلوا على معارف متقدّمة، واكتسبوا من عملهم بعد ذلك مهارات نادرة لا يمكن أن يكتسبوها من الداخل، واستفدنا باقتناع المهاجرين بضرورة البقاء في بلد المهجر؛ فلا مقبولية لهم في الدّاخل.

- وهل كانت هناك نيّات مبطّنة أخرى لهذا الفعل؟ .

- نعم، الغاية الرئيسة من هذه الفتنة هي أن يبقى البلد معزولًا عن مستحدثات المعارف التي كانت يمكن أن تدخل إلى البلد بعودة المهاجرين، وكذلك الاستنزاف المستمرّ للعقول ببقائها في المهجر، وعدم التّفكير بالعودة .

- ولكن بعضهم عاد؟ .

- لو دقّقت النّظر لوجدت العودة لمن فَقَدَ مصلحته في الخارج، أو لمن استفاد من الداخل .

- ولكن الأمر لا يخلو من عودة المخلصين؟ .

- نعم، ولكننا حيّدناهم بنظرة القابعين في الداخل على أنّهم مستغلّون ومتكبّرون، أو ربّما جزء من المؤامرة الخارجيّة التي يحاول القادمون تحقيقها على أرض الواقع .

- وهل هناك مخطّطات أخرى؟ .

- يا حاج! باللهِّ عليك... ارحموني إذ قارب الفجر على البزوغ، ولم أنم منذ الصّباح!

ينظر الحاج علي الصفّار إلى جلسائه، ويطلب منهم أن يؤجّلوا بقيّة الحديث إلى الصّباح؛ لأنّ أسيرهم قد أعياه التّعب كما يدّعي، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نثق بأقواله التي يصعب الوثوق بها وهو في كامل قواه وطاقته، فكيف بها إذا خارتْ !!.

يسحب المهندس سليم سطام إلى مخدعه الذي يستحقّ... ويبقى الجلساء الأربعة في مسامرة ملمة حتى يحين أذان الفجر...

يرفع جواد المؤذّن أذان الفجر من مسجد الحي الذي اعتادوا على صوته الشجي ذي البحّة الحزينة... ينهض الجمع للصلاة... ثم للراحة وإن كانت شكلية، فعلى الرغم من نوم جفونهم، يبقى الألم صاحيًا في أرواحهم... فما عانوه من الأمس الذي لم يعيشوه ولكن سمعوا به، ومن الحاضر الذي أوجعهم بنكباته ومآسيه، ومن المستقبل الغامض

الذي يرتعد الحكيم منه بحكم أن ما كان أمسه أسود، وحاضره أكثر سوادًا، فهل يمكن أن يكون مستقبله بضياء؟!... ربما...

الفصل الثاني عشر

(١)

على الرّغم من قدوم الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم) إلى مجلس الحاج علي الصفّار مبكّرين؛ لكن الحاج التمسهم أن يسمحوا لأسيرهم بأخذ قسطه الكافي من الراحة، لا من أجل راحته فحسب، بل من أجل انتزاع ما يكفي من الاعتراف عن ذاكرته المليئة بالخساسة والتأريخ القذر، فالجسد الواهن غير المكتفي من راحته قد يضعف عن التذكّر، والجلساء الأربعة أحوج ما يكونوا إلى تذكّر سطام، فهي ذاكرة على الرغم من خساستها؛ لكنها تحمل من رفوف الجراحات ما تنوء به مكتبة فارهة .

وقبيل الضُحى استشعر الشباب الموكّلين بحراسة الأسير سطام أنّه صحا من رقدته؛ فأخبروا الحاج الصفّار، الذي طلب بإحضاره بعد أن يكتفيَ من الإفطار، وبعد وقت ليس بالطّويل أحضر أحد الشباب الموكّلين بالحراسة أسيرهم إلى مجلس الحاج؛ كي يباشر

الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم) سلسلة حفرهم في مستنقع الخسّة؛ بحثًا عن أملٍ لضمان المستقبل .

نظر الحاج إلى أسيرهم، وبادره بالسّؤال...:

- ها قد أخذت قسطك المطلوب من الراحة؛ فهل نبدأ بالحوار...

سكت سطام، وكأنّه لا يريد الحوار، ولكن لا حيلة له؛ فالتفت إليه الشيخ شهاب:

- يا سطام ! ليس لك إلا أن تستجيبَ؛ فعلى طول حوارك يطول عمرك؛ فإن أحببت تقصيره فلك ذلك...

ينظر سطام إلى الشيخ نظرة المتذمّر، المجبر على الطّاعة، لكن المعلّم يقطع هذا الحوار من طرف واحد، ويوجّه السّؤال إلى سطام:

- ذكرت أمس أنّكم عدلتم أطراف الفتنة، وجعلتموها بين ستّة أطراف متقابلة في ما بعد عام ٢٠٠٣ م وقد حدّثتنا عن لؤم تفكيركم بخلق الفتنة بين فئتي المضطهدين؛ القابعين في الداخل، والمهاجرين في الخارج .

- نعم أخبرتكم ذلك بالتفصيل .

- فما الأطراف البقيّة؟ .
- في ما يخصّ الطّرفين الآخرين لا يخطران على بالكم .
- تحدّثْ فنحن لسنا بصدد الإجابة عن أُحجيّة .
- هل فكّرتم في يوم من الأيّام أن نشقّ مصادر المعرفة على جبهتين؟ .
- لم نفهم ! ماذا تقصد؟ .
- في ما يخصّ طائفتكم... كم مصدرًا من مصادر معرفتها؟ .
- بالإجمال لدينا مصدران أساسيّان؟ .
- ما هما؟ .
- المصدر الأكاديميّ؛ وهو خطّ ممتدّ من رياض الأطفال؛ مرورًا بالمدارس وانتهاءً بالجامعات بمراحلها المختلفة الأوّليّة والعليا.
- وما المصدر الثاني؟ .
- المصدر الدّينيّ؛ وهو خطّ ممتدّ بالتّوازي أيضًا بمراحل الحوزة العلميّة المختلفة من مرحلة المقدّمات إلى السّطوح

بمستوييها العالي وما قبله، حتى البحث الخارج .

- وهل خطر ببالكم أنّنا حوّلنا اتّجاه التوازي في تعايشهما إلى تقابل وتضادّ!.

- وكيف؟ .

- جعلنا الحوزوي قبالة الأكاديميّ، والأكاديميّ قبالة الحوزوي.

- وضّح أكثر .

- أشعنا مفاهيم التّناقض بينهما، وأجهضنا أيّ محاولات للتّقريب بينهما، بحيث سعت بعض الجهات إلى جعل المراحل الحوزوية قبالة المراحل الأكاديميّة؛ ليكونَ ذلك سبيلًا للمقاربة، لكنا أجهضنا هذه المحاولات، وسعينا إلى دقّ إسفين التّباغض بينهما، بحيث إنّ الحوزويَ يتّهم الأكاديمي بالسطحيّة، والأكاديميّ يتّهم الحوزوي باللّامنهجيّة والرّجوعيّة.

- وماذا أردتم من هذا؟ .

- أردنا أهدافًا كثيرة .

- وما أهمّها؟ .

- استمرار القطيعة بين المنهجين، بحيث لا يفيد

أحدهما من الآخر؛ وهو بالمحصّلة تباغض متنامٍ يجعل من خرّيجي المصدرين قبالة بعضهما؛ وهذه المقابلة ضدّيّة لا ندّية .

- إلى ماذا ترومون بالضبط؟ .

- على الرغم من أنّي وضحت فيما سبق، ولكن سأوضّح أكثر: إنّ ما يرشح عن المصدر الأول لا يعترف به الثاني، وما يرشح عن المصدر الثاني لا يعترف به الأوّل، وبذلك تستمرّ القطيعة، ويتفاعل السّلب في المجتمعين، بحيث يكون هناك مجتمع حوزوي مستقلّ عن الأكاديميّ ولا يحبّذه، وهناك مجتمع أكاديمي مستقلّ عن الحوزوي ولا يستسيغه؛ فيكون نتاج بعضهما محصورًا في مجتمعه دون سواه؛ فلا يفيد الحوزوي من الأكاديميّ، ولا يفيد الأكاديميّ من الحوزوي .

ينظر الجلساء إلى بعضهم بعضًا، ويتأملون قبح هذه المخطّطات وعمقها السّلبيّ، وبينما هم كذلك يدخل أحد الشباب الموكّل إليهم مهمّة مراقبة قدوم أحد الرجال إلى المجلس، فيخبرهم بقدوم بعض رجال الحي...

يسير الحاج الصفّار إلى الشباب بضرورة إرجاع سطّام إلى مكانه حتى يحين الوقت لإتمام الاستجواب، فالجلسة الاستجوابية لا بدّ أن تكون سرّية، ومحدّودة الأفراد حتى لا يتشعّب الحديث، ويتركّز على المهمّ...

(٢)

استمرّت مسامرة الرجال في مجلس الحاج الصفّار حتى أذان الظهر؛ فانسحب بعدها الجالسون إلا الجلساء الأربعة (الحاج الصفّار، والشيخ شهاب، والمعلّم فهمي، والمهندس سليم)؛ كي يتمّموا ما بدأوا به من استجواب؛ يبتغون منه كشف المخطّطات القديمة المتجدّدة في فكر الهدّامين من المتآمرين في الخارج وأذرعهم في الدّاخل.

وبعد أن أتمّ الجلساء غداءهم وشايهم، أشار الحاج إلى أحد الشباب الموكّلين بحراسة أسيرهم إلى استقدامه مجدّدًا من أجل استئناف الحديث .

وحالما قدم سطّام بادره المعلّم فهمي:

- أتممْ ما بدأت به من حديث عن زرع الفتن بين الأطراف السّداسيّة المتقابلة .

فأجابه سطّام:

- لقد أجبتكم عن أربعة أطراف متقابلة، ولم يبقَ غير طرفين أخيرين .

- نعم!، اذكرهما .

- هذان الطرفان معقّدان؛ إذ فيهما تشعّبات كثيرة .

- وما تعني بهما؟ .

- إنّها أطراف المكوّنات .

- أيّ مكوّناتٍ؟ .

- أيّ مكوّن كان، سواء أكان مكوّنًا اجتماعيًّا، أو مكوّنًا دينيًّا، أو مكوّنًا عرقيًّا، أو مكوّنًا ثقافيًّا .

- وكيف أمكنكم خلط هذه الخامات المتشعّبة من الأطراف؛ فصغتم منها طرفين متقابلين؟ .

- نحن لم ننظر إلى التفاصيل التكوينيّة، بل نظرنا إلى الطبيعية المكوّنيّة .

ينظر الشيخ شهاب إلى المعلّم فهمي:

- يا أستاذ! أنجدْنا أصبح المتآمرون فلاسفة؟ .

يضحك الحاج الصفّار، ويبادر الشيخ بالكلام:

- لولا شيطنة الفلسفة ما كانوا متآمرين يا شيخ ! .

- فعلًا يا حاج...

تتعالى ضحكات مؤلمة من الجلساء الأربعة، ويوجّه المعلّم فهمي سؤاله إلى سطام بعد أن انتهت موجة الضحك المؤلم:

- وماذا تقصد بكلامك: نحن لم ننظر إلى التفاصيل التكوينية، بل نظرنا إلى الطّبيعة المكوّنيّة؟ .

- التكوين الثقافي والعِرقيّ والطّائفيّ والمجتمعيّ لا يمكن أن نفيدَ منه في صناعة الفتنة إلا إذا نظرنا إليه على أنّه مكوّن، بالضبط كالنّظر إلى أعضاء البشر على تكوين عضويّ لا يمكن أن نجعلَ منه نمطًا متقابلًا إلا إذا صنّفناه إلى جهاز هضميّ وجهاز عصبيّ وهكذا؛ لذلك نحن جعلنا من المكوّنات أنماطًا متقابلة؛ فخلطنا التّكوين في الأنماط فاستحالة خلطة فتنة من طراز خاصّ، ولعلّها أخطر خلطة فتنة نجحنا فيها وما زال البلد يدفع ضريبتها؛ فالفتنة الطّائفية هي الكبرى، تليها الفتنة الإثنيّة والعرقيّة ـ تليها الفتنة الثقافية، تليها الفتنة المجتمعيّة بين الأعراف والمدنيّة وهكذا .

- فعلاً هذه خلطة خطِرة استطعتم بها أن تقوّضوا كثيرًا من مسارات التّقدّم والتّحضّر والمدنيّة .

- وما خَفِي كان أعظم ! .

- وهل لديكم أعظم ممّا ذكرت أيّها المجانين؟ .

- نعم! لقد عملنا على عقد تقابل بين الدّين واللّادين، وعملنا على جعل الدين في خانة الرّجوعية والتخلّف، واللّادين في خانة التقدّميّة والمدنيّة، وبطبيعة الحال يميل الشاب إلى التقدّميّة والمدنيّة؛ فازدادت موجات اللّادينية المعبّر عنها بالإلحاد؛ سواء أكان عاطفيًّا أو عقائديًّا، المهمّ نبغّض الشباب بالدّين؛ لنضمنَ المستقبل اللّادينيّ، كي يكونَ الشباب بلا ثوابت، بلا جذور؛ فيسهل علينا قيادتهم إلى ما نريد .

- وهل اكتفيتم بهذا القدر؟ .

- مؤكد لا .

- فماذا فعلتم بعد كلّ هذه الشّبكة من التناقضات والفتن بينها؟ .

- حينما انتزعنا تمسّك الشاب بالدّين، عملنا على خلخلة ثوابته الرئيسة من قبيل: نزع الاندفاع لتكوين الأسرة؛ فجررناه إلى المتع اللّاشرعيّة بعنوانات من مثل العلاقات العاطفيّة، وحرّيّة التّعارف وصناعة شبكة صداقات غير شرعيّة بعنوان الزّمالة، وكذلك تسويق العنوانات البرّاقة ذات المحتويات المنحرفة من قبيل،

المساواة، حرّيّة المرأة، تمكين المرأة، الجندر والنّوع الاجتماعيّ وغيرها من المفاهيم المغلّفة بعنوانات الحداثة وما بعدها... والمضمرة لنيّات أقل ما توصف به: أنّها نيّات مدمّرة للفرد وللمجتمع .

- وهل لديك إضافات أخرى؟ .

- لا! فلقد كشفت لكم أوراقي كلّها، ويمكنكم قراءتها على مهل؛ لتعرفوا كم يحتاج لكم من الوقت لترمّموا ما دمّرنا ! .

- لا تقلق؛ فنحن بعزيمتنا وتمسّكنا بشعائرنا وعقائدنا سنبقى الأقوى .

- ابقوا في شعاراتكم الفارغة، ونحن نأكل من جرفكم كلّ يوم .

يختم الحاج الصفّار الحديث مع سطّام بقوله:

- إنّكم فارغون لأنكم بلا مبادئ، ونحن ممتلئون بمبادئنا الالهية، ويكفينا قوّةً أنّ الله يعدنا بقوله (إنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا) صدق الله العلي العظيم...

ينظر الحاج الصفّار إلى المهندس سليم، ويومئ له أن يرجِع أسيرهم إلى مأواه حتى يروا فيه رأيهم.

الفصل الثالث عشر

(١)

يدعو الحاج الصفّار رجال الحي للتباحث في مصير سطّام... يتوافد الرجال من أرجاء الحي باتّجاه مجلس الحاج... يكون في انتظار الرجال الجلساء الّذين استجوبوا الأسير غير المرغوب فيه...

يبدأ الحاج علي الصفّار حديثه مع الرجال:

- يا جماعة الخير! لا نخفي عليكم شيئًا فأنتم شركاؤنا، لقد عملنا طَوال الأيّام الماضية، أنا والشيخ شهاب أبو مؤمّل والأستاذ فهمي والمهندس سليم، على استجواب الأسير إبراهيم الخبّاز، من أجل أخذ القرار بمصيره بعد أن نكملَ الاستجواب .

يعلّق أحد الحاضرين من رجال الحي:

- أحسنتم يا حاج! وقد كنتم خير ممثّلين لنا في محنتنا هذه؛ فواقعًا لم نكن نعي ما نفعل به .

- عفوًا يا أخي فهذا واجبنا، ونعتذر إن كنّا لم نشاورْكم في الأمر.

يجيب أحد الحاضرين من الرجال:

- أبدًا يا حاج؛ فقد كفيتمونا المَؤونة، ولكن ما أهمّ ما اكتشفتموه؟

- لعلّ أغرب ما اكتشفناه أنّه كان يحيا بيننا باسم مستعار؛ فليس اسمه إبراهيم الخبّاز، بل هو سطّام .

ينبري أحد الحاضرين من الرجل:

- قبّحه الله وقبح اسمه... وماذا كشف لكم أيضًا؟ .

- كشف لنا مؤامرات قديمة متجدّدة، بحيث هم يعملون جنبًا إلى جنب مع الشّيطان، فهم بحقّ أعوانه يعملون على تدمير الفرد والمجتمع، هل تعلمون يا رجال أنّ جميع الفتن الدينيّة، والمجتمعيّة، والثقافية، والعِرقيّة كانت من صنيعتهم، وما الشّعب إلا ضحيّة لدسائسهم ومؤامراتهم؟!...

يجيب الحاضرون باستغراب:

- سبحان الله ! .

- ما أقبحهم ! .

- ما أقذرهم ! .

يبادرهم الحاج بالقول:

- الحمد لله الذي أخزاهم وكشفهم لنا، وجَعلَنا متنوّرين بنوره...

يجيب الحاضرون:

- يستحقّ الحمد والثّناء...

يلتفت الحاج إلى الحاضرين، ويسألهم:

- نحن استنفدنا استجوابنا له؛ فما تقولون: ماذا نحن فاعلون بمصيره؟ .

يختلف الحاضرون:

منهم مَن يقول: نقتصّ منه .

منهم مَن يقول: نبقيه مسجونًا حتى يموت من العذاب .

ومنهم مَن يقول: نسلّمه للشرطة...

تتعالى الأصوات ويختلف القوم بآرائهم... حينما ينبري الشيخ شهاب؛ فيقطع نزاع القوم بقوله:

يا جماعة الخير ! نحن في مسائلنا الصغيرة والكبيرة نستشير الحاج علي الصفّار، ونحتكم إلى حكمته ونعمل برأيه؛ فلِمَ في هذا الأمر نميل إلى آرائنا؛ فبرأيي أن نستمع إلى ما يقول .

يرتضي الحاضرون رأي الشيخ شهاب، وينصتون إلى الحاج علي

الصفّار؛ كي يدلوَ بدلوٍ في مصير أسيرهم:

- يا جماعة الخير، لست بمنفرد بقولي، ولا بمعتزّ برأيي، وإنّما أنا خادمكم وأريد فائدتكم؛ فالواقع أنّنا استجوبنا الأسير كي نحتفظ بالمعلومات إن ضيّعها الآخرون، ولولا ضعف السلطة الحكوميّة اليوم، ونحن نعيش في أيّام عصيبة من عام ٢٠٠٧م لسلّمنا الأسير إلى الشرطة لتحقّق معه وتقتصّ منه، ولكن ما دام الحال كذلك حقّقنا معه، ودوّنا اعترافاته كافّة، ولكن أقول إلى هذا الحدّ يكفينا العدل مؤونة تحمّل مسؤوليّته.

يبادر أحد الحاضرين بقوله:

- وما تقصد يا حاج؟ .

- أقصد أن نقدّمَ نسخة من الاعترافات والأدلّة بعد فحص بيته وبيت (الحردان ولقيطه الهاربين) إلى القضاء ليأخذ مجراه، ونوكّل محاميًا ثقة لمتابعة القضيّة كي نضمنَ تحقّق العدالة وعدم ضياع حقوق دماء المغدورين والشهداء من أبناء حيّنا؛ فماذا تقولون؟ .

يؤيّد الجميع رأي الحاج الصفّار، ويُكلِّف المعلّم فهمي بأخذ مجموعة من الرجال لاستكشاف بيت الهاربين الحردان ولقيطه، ويكلِّف المهندس سامي بأخذ مجموعة من الرجال لاستكشاف بين

الأسير سطّام، ويمنح الفريقين فرصة كافية للتّفتيش، وحينها يتوجّه الشيخ شهاب أبو مؤمّل لقسم الشرطة لاستقدام رجال الأمن؛ لتسلّم الأسير، والأدلّة المجموعة من البيتين .

(٢)

انتشر الفريقان كلٌّ على وجهته... بحثًا عن أدلّة ومعلومات قد يستدلّون بها على شيء في البيتين المحدّدين (بيت الحردان) و (بيت سطّام)... في هذه الأثناء وصلت الشرطة بمعيّة الشيخ شهاب، ووجدوا الحاج علي الصفّار بإنتضارهم لزيارة البيتين المقصودين...

انتشر رجال الشرطة فيهما؛ معاتبين الرجال على دخول البيتين والعبث بالأدلّة التي تُعدّ أدوات الجريمة، لكن الحاج الصفّار بادرهم بالرّدّ:

- واقعًا جميع أفراد الحي مصابون بحرقة من نار هذين البيتين والإنسان لا يمتلك وعيه حيال رؤية القاتل يحيا بين ظهرانيه من دون أن يحرّك ساكنًا... وعلى كلّ حال؛ فالمجرمون هربوا وهذه ثكناتهم فتفضّلوا مارسوا مهامّكم...

فيبادره الضابط بالسّؤال:

- يا حاج هذا الفعل مخالف للقانون؟ .
- يا سيادة الضابط، وأين كان القانون حينما عبث

هذان الداران بأمن حيّنا؟ قتلوا زميلكم الضابط سلام علي، وشوّهوا صغيرة إمام المسجد «زينب» وقتلوا والد المهندس سليم، وفجّروا الحسينية و... و... و... و...، أين كنتم في أثناء هذه الأحداث؟ فإن كنتم تطالبوننا بما تريدون، فنحن نطالبكم بما نريد، وحينها تكون الكفتان متعادلتين .

- يا شيخ! أنت تعلم وأهل الحي يعلمون أنّ الأمريكان حينما دخلوا دخلوا محتلّين، وسياسة المحتلّ هي تخريب البلاد بإستراتيجيّة «فرّقْ تسُدْ»؛ لذلك أوّل ما فعلوه أنّهم حلّوا منظومَتي الأمن والدّفاع: الشرطة والجيش وسائر التّشكيلات المساندة، ونحن الآن نحاول أن نعيدَ تشكيلاتنا بعد سنين من العناء، وقد استغلّ البعث والتنظيمات الإرهابيّة هذا الفراغ ليعيدوا تشكيلهم على أرض الواقع؛ فلا تعتبوا علينا ونحن سندكم...

- وأنتم كذلك لا تعتبوا علينا ونحن مددكم...

ينتهي الحوار بهذه العبارات، وتبدأ الشرطة بمجريات عملها وينسحب الأهالي من داخل البيتين ويتفرّجون من خارجه .

وبعد مدّة من الفعل... انسحبت الشرطة وأخذت معها ملفّات المعلومات التي جمعها الحاج علي الصفار وجلساؤه الثلاث من

الخسيس سطام، ومجموعة أدلّة ومستمسكات أخرى تعينهم على التّحليل وقراءة تحرّكات الإرهابيّين، وأغلقوا البيتين بغلق محكم... وكتبوا عليها عبارة» مصادر الهلع»...

الفصل الرابع عشر

يطوي المترجم العربي لفريق الأمم المتحدّة في العراق (شريف العلي) آخر ورقة من لفافات الورق التي عثر عليها في أحد الصناديق المرسلة إلى خزانات الأمم المتّحدة بإيفادات فرقه المتكرّرة قبل عام ٢٠٠٣ وبعدها، ولعلّ هذه اللفافات هي الأحدث من المستجلبات قبيل حدوث الوقائع الطائفيّة في العراق .

كان شريف العلي أكثر اندكاكًا مع هذه اللفافات التي دُوِّن عليها عبارة «مذكّرات رجل سليم»؛ إذ جذبه العنوان فاستغرق في قراءته مترجمًا لفريق الأمم المتحدة الذي يرافقه قرابة الليلة الكاملة دون انقطاع؛ إذ اعترف الجميع بانشدادهم إلى أحداث ما قصّه المهندس سليم في مذكّراته من أحداث في حيّه الظّاهر من وصفه أنّه حيّ شعبي في مدينة تلعفر، ولكن أجمل ما فيه أنّه حيّ متكاتف؛ يمثّل صلابة الشّعب العراقيّ على الرّغم من محنه ومآسيه...

سأل رئيس الفريق الأممي مترجمه المعتمد:

- يا شريف، هل حقًّا أنّ هذا ما حدث في العراق؟ .

فيجيبه شريف:

- يا سيّدي بحكم زياراتي المتعدّدة للعراق، وتعرّفي على نفسياتهم وثقافتهم وعقائدهم؛ فيمكن القول إنّ أغلب ما مدوّن في هذه المذكّرات يلامس واقعهم الذي خبرته؛ فأنا من مواليد ١٩٦٠ وكانت لي زيارات في الثّمانينات والتّسعينات والألفينات للعراق؛ بحكم عملي مترجمًا للفرق الأممية.

- وهل يمكن أن يكونَ المجتمع العراقيّ بهذه الصّلابة على الرّغم من كلّ المؤامرات التي كشف عنها سطّام؟ .

- نعم، فالشّعب العراقيّ ليس جديدًا عليه أن يخوضَ المآسيَ؛ فهو معجون بالحزن، ويقتات المحن...

يصفّق الفريق بشدّة لحديث المترجم شريف، ويطلبون منه أن يبحثَ عن تكملة لمذكّرات المهندس سليم؛ ليتعرّفوا ما جرى على العراق باستظهار أحداث هذا الحي؛ الذي مثّل العراق بأبهى صورة...

ينشغل المترجم شريف بالبحث عن بقايا لمذكّرات أخرى توثّق لمراحل تأريخ العراق بعد عام ٢٠٠٧ م... ولكن دون جدوى...

يطلب الفريق منه أن يبحثَ في سائر الصناديق الأخرى التي وصلت إلى المقر الفريق الأممي مؤخّرًا؛ فلعلّه يهتدي إلى لفافات

أخرى تكمل ما بدأه المهندس سليم...

يبحث في صناديق مترامية، متعدّدة، متراكبة... ولكن دون جدوى وكأنّ سائر اللفافات صارت مصير المترجم شريف والفريق الأممي العامل معه...

وبعد جهد جهيد... ويأس كبير... أعلن المترجم أنّه لا بقيّة للمذكّرات... وسيبحث عن وثائقَ أخرى... لربّما تكون بدقّة ومتعة ولذّة ما قرأه لفريقه من لفافات سليم المهندس وجلسائه الثلاثة...

ذهب كلّ فرد من أفراد الفريق الأممي إلى غرفته؛ كي يستريحَ من انشداد تامّ باتّجاه كلمات مذكّرات المهندس سليم وجلسائه الثلاثة... وعلى الرّغم من بزوغ الصّباح... والإنهاك الذي كان يشعر به المترجم شريف... لكنه لم يستطع النوم... وكان يقلّب بذهنه كيف يمكن أن يتحصّل على سائر اللفافات التي تكمل ما بدأه كاتب ذلك الحي المنكوب....

في لحظة من لحظات الصّفاء نهض المترجم عجِلًا، وذهب باتّجاه المخزن المودعة فيه الصناديق؛ يفتح الصندوق الحاوي للّفافات» مذكّرات رجل سليم»... يفتحها على عجل ولهفة... ينظر في آخر صفحة من اللفافات فيجد رقم هاتف مدوّن... يستخرج هاتفه

ليدوّن الرّقم المكتوب ليتّصل به ويستعلمَ مَن صاحب الرّقم عن البقيّة، يكتب الرّقم في هاتفه ويطلبه، يبدأ الجهاز بالرّنين...

- للحديث بقيّة -